# عُرى الإيمان وسننه والنية

## مِن

## كتاب قوت القلوب للإمام أبي طالب المكي

## توفي (386 هـ)

**مقرر الدورة الصيفية العشرين**

**بدار المصطفى بتريم للدراسات الإسلامية**

**لعام 1435هـ 2014م**

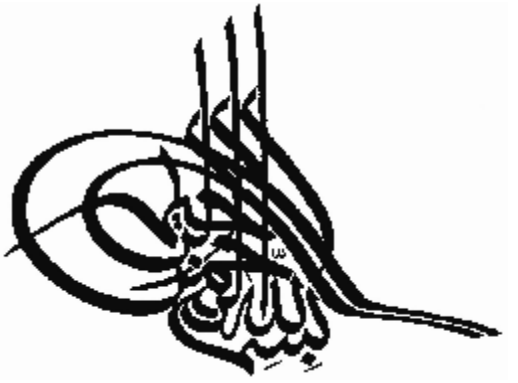

**مقدمة**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد: فهذه فصولٌ مأخوذةٌ مِن كتاب ((قوت القلوب)) للإمام أبي طالب المكي(ت386هـ) رحمه الله تعالى الذي قال عنه حاجي خليفة في كتابه ((كشف الظنون)) ما نصه: (قالوا: لم يُصنَّف مثله في دقائق الطريقة)، وقال عنه الإمام عبد الله بن علوي الحداد (ت1132هـ) رحمه الله تعالى في ديوانه:

**وَمُولِّفِ "القُوتِ" الذي انتفَعَ النُّهى بكتابِهِ، أحسِنْ بِهِ مِن لَوْذَعِ**

وللسادة العلويين عليهم رحمة المولى تعالى وطيدُ علاقةٍ بهذا الكتاب المبارك؛ إذ أنَّ جدَّهم الإمام العارف عبيدالله بن المهاجر أحمد بن عيسى رحمه الله تعالى (ت383هـ) قد قرأه على مؤلِّفه الشيخ العارف أبي طالب المكي رحمه الله تعالى، قال العلامة المسند والعارف المحقق عيدروس بن عمر الحبشي(ت1314هـ) رحمه الله تعالى في ((عقد اليواقيت))2/1108: (تأدّبَ الشيخ عبيد الله بأبيه الإمام أحمد بن عيسى وتخرّج عليه، وأخذ عن غيره مِن علماء عصره، واجتمع في مكة المشرفة بالشيخ أبي طالب المكي، وقرأ عليه كتابه ((قوت القلوب)) سنة (375هـ).

ولهذا تجد أكثرَ رجالِ هذه الطريقة على تعاقُب القرون يحرصون على قراءة هذا الكتاب النافع قراءةَ تحقيقٍ وعمل، كما تجد الكثير مِن كتبهم تهتم بالنقل عنه ومِن ذلك ما نقله الإمام الحداد رحمه الله تعالى في كتابه ((إتحاف السائل))حيث قال: (قال صاحب ((قوت القلوب)) رحمه الله ونفع به: إذا صادفتَ لمعروفك أحداً مِن أهل اليقين، الذين

)

لا يَرون إلا الله فاغتنِم اصطناعَ المعروف إليه، وإنْ كان حاله يقتضي أن لا يُشكر أو لا يدعو لك لكونه لا يَراك، فإنّ يقينه أنفع لك وأرجح في ميزانِكَ مِن دعاء غيره وشكره.) انتهى بمعناه .

وقد كان هذا الكتاب من الكتب المقررة في مجلس روحة[1] الإمام الحداد رحمه الله تعالى، فقد جاء في كتاب ((تثبيت الفؤاد))1/267 ما نصه: (ومرّ في القراءة في ((قوت القلوب)) وقت الدرس ذِكْرُ التوكل، وأحوال المتوكلين، فقال: مثل هذا يتيسر للمتجردين عن العلائق كلها، وما ذلك ببعيد في حقه، ويمكنه أن يكون بحيث لو مرّ على وادي ذهب لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأما مَن ورّط نفسه في العلائق فلا يمكنه ذلك ، وإنْ حدّث نفسه به كان مطالباً بأشياء دونها نزْع الروح، فَلْيَرضَ بدرجة أصحاب اليمين، والغالب إنّ الرجل المصلِح اليوم في أول درجة أصحاب اليمين، إلا إن كان أحد خامل مضمر للصبر واليقين وحُسن الافتقار).

وفي عصرنا هذا قُرر هذا الكتاب في مجالس الروحة الخاصة بالدورات الصيفية التي يَعقدها شيخُنا الحبيب المربّي العلامة عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ حفظه الله تعالى بدار المصطفى بمدينة تريم لثلّة مباركة مِن طلاب الجامعات والكهول وأصحاب الوظائف والمِهن المختلفة القادمين مِن شتّى الأقطار للتزوّد مِن عِلمِ السلوك والتزكية

(1) مجلس الروحة في حضرموت يُطلق على المجالس العلمية التي تعقد بعد صلاة العصر، وكلمة الرَّوحة واردة في الحديث النبوي الشريف ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه: ((لغَدوةٌ أو رَوحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب)).

الذي سيعمُّ به الخير في العالم بمشيئة الله تعالى، وقد تقدّمت قراءة الأبواب السابقة لهما في دورات متقدِّمة ابتداءً مِن الدورة الخامسة عشرة سنة 1430هـ وما بعدها.

**وختاما** نسأل الله تعالى أن يكون التأمل في أبواب أمثال هذا الكتاب والعمل بعظيم ما فيه مِن أخلاقٍ وقِيمٍ وآدابٍ سبباً مِن أسباب الفرج لجميع أفراد الأمة وذلك مِن خلال إحياء رسالة الخُلُقِ المحمدي والهدي النبوي والسّير بها في الناس، وما ذلك على الله بعزيز، وبالله التوفيق وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين.

## الفصل السادس والثلاثون
## في فضائل أهل السنّة والطريقة وطرق السلف من الأئمة

السنّة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم للطريق الأقوم ، يقال: طريق وطريقة وسَنَن وسنّة وحجّة ومحجّة، فمن فضائلِ السنّة وطريقِ أهلها: التقلُّلُ من الدنيا في كل شيء، والقناعة من الله تعالى بأدنى شيء، والتواضع لله بكل شيء، وفي الخبر: ( فضلُ العبادة التواضع )، وروينا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:( **أربعٌ لا يوجدنَ إلا بعَجَب: التواضعُ؛ وهو أوَّل العبادة، والصمتُ، وذكرُ الله تعالى، وقلةُ الشيء** ).

واعلم أنَّ التواضعَ يظهرُ بمعانٍ خمسةٍ: بالقول، والفعل، والزيّ، والأثاث، والمنزل. يكون في المؤمنِ بعضُها، فمَن كمُلت فيه فهو متواضع؛ والكبرُ ضدُّ التواضع، وهو يظهَرُ أيضاً بأضدادِ هذه الخمسة، يُبتلى المؤمنُ بِبعضِها ويُعافى مِن البعض، فمَن كمُلت فيه فهو متكبِّر، وحقيقتُها في القلب، وظاهرُها بالأفعال والأقوال .

ثم الورعُ عن الشبهات والمشكلات مِن العلوم والأعمال أن يُقدِم عليها بنطقٍ أو عملٍ ولا يعتقد نفيَها ولا إثباتَها خشيةَ أن يكون معتقداً لباطل أو نافياً لحق، بل يكون اعتقادُه فيها تسليماً لله عزَّ وجلّ، ويقول: آمنتُ بحقائقِها عند الله تعالى، فذلك تعبُّدٌ من الله عزّ وجلّ للمؤمنين فيما تشابهَ من الأمور أن يسكتوا ويسلِّموا، وبذلك وصفَ الراسخين في العلم ، وأقسم بنفسِه على نفيِ إيمانِ مَن لم يُسَلِّم تسليماً، وجعل التسليمَ مزيدَ الإيمان في قوله تعالى:M وَمَا â إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا L الأحزاب: 22، وفي الخبر: ( **إنما الأمور ثلاثة: أمرٌ استبانَ رشدُه فاتَّبعه، وأمرٌ استبانَ غيُّه فاجتنِبه، وأمرٌ أشكلَ عليكَ فَكِلهُ إلى عالِمِه**)، وكذلك ابن مسعود يقول: ( إن لهذا القرآن مناراً كمنارِ الطريق، فما عرفتُم منه فاعمَلوا به، وما لم تعلموه فكِلُوه إلى عالمه )، وكان أيضاً يقول: (أنتم اليومَ في زمانٍ

خيرُكم فيه المسارع، وسيأتي عليكم زمانٌ يكونُ خيرُكم فيه المتبيِّن ) يعني لوضوحِ الحق في القرن الأوَّل، ولدخولِ الشبهاتِ في زمانِنا هذا، فصار الحقُّ غامضاً ، فكان خيرُ الناسِ اليومَ المتثبِّتَ بالورع، كما أخبر أنَّ خيرَهم يومئذ المسارعُ بالفضل .

ومما يدلُّك أنَّ الإيمان هو التسليم، كما أنَّ الإيمانَ هو التصديق، أنَّ في قراءةِ بعض التابعين منهم جعفر بن محمد، وقد رويناه عن أبي جعفر محمد بن عليّ أنهما قرآ:

M 2 3 4 L البقرة: 128 وقرآ أيضاً: M { ~ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ ¢ L الزخرف: 69 فلولا أنهما بمعنى واحد لم يُجز أن يخالفوا المعنى في المقروء.

وكذلك قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الأمر المتشابه الذي يُشبِه الحقَّ من جهة ويشبِه الباطل من جهة: ( لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذِّبوهم ولكن قولوا: آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم )؛ هذا لأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة فهي حق، ثم أخبر أنهم قد حرَّفوا، فاحتمل أن يكون ما يخبرون به المؤمنين مما أنزل الله تعالى فلا يحلُّ التكذيبُ به ولا اعتقادُ نفيه، واحتمل ما يخبرون به المؤمنين أنهم حرَّفوا فيه، فلا يحلُّ قبولُه ولا اعتقادُ ثبوتِه، فأمرَهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيقافِ ذلك والإيمانِ بما أنزل اللهُ تعالى جملة، فإن كان ما أخبروهم حقّاً دخل فيه، وإن كان باطلاً لم يضرّه، فالمسلم هو الذي يُسلِّمُ ما لم يظهرْ دليلُه في العقل لأجلِ القدرةِ والسنّةِ والنقل، كما أنَّ المؤمنَ هو الذي يصدِّق بما لم يظهرْ بمشاهدة العين الإيمانَ بالغيب؛ لأنَّ العقلَ بصرُه القلب، كالعينِ بصرُ الجسم، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :( **رُفِع القلم عن المجنون حتى يعقل** )، كما قال الله تعالى: M Q R S T L النور: 61.

ثم ترْكُ ما لا يعني مما قد كُفي ومما لم يَكِل إليه من القول والفعل، لأن الدخولَ فيما لا يعني هو التكلُّف المنهيُّ عنه، الذي أخبر رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ الأتقياءَ من أمَّتِه برآءُ منه، وهو يُشغِل ويقطع عمّا يعني، وفيما يعني شُغلٌ عمّا لا يعني لكل فطِنٍ

)

عاقل، وهو أصل الحكمة فيما أخبر به لقمان لما سُئل أنّى أوتيَ الحكمة؟ قال: ( بشيئين: لا أتكلَّف ما كُفيت، ولا أضيِّع ما كلِّفت ) ، فهذا شيء لا يضرُّ جهلُه ولا ينفعُ فعلُه، ولأنه شيءٌ كتِب عليه لم يكن له فيه فضلٌ وإن سُمِع منه وظهر به، ولم يكن له فيه مزيدٌ ولا لغيرِه نفع.

ثم كفُّ الأذى؛ فإنَّ ذلك من الورع، وكان سهلٌ رحمهُ الله تعالى يقول: كفُّ الأذى كسبُ العقل، واحتمالُ الأذى كسبُ العلم، والنصيحةُ للخلق والرحمةُ لهم كسبُ الإيمان، من العمل في قطع ما قد اعتاد من عاجل حظوظ النفس مما يقطعه عن العمل لأجلِ الآخرةِ وأعمال النفس وإجهادِها، وأن لا يكون لها معتادٌ مِن شهوةٍ تعودُ على النفس منه منازعة، فإنَّ العادةَ جندٌ غالب، لأجلها تعذَّرت التوبة، ولغَلَبَتِها رجع العبدُ عن الاستقامة؛ وهي بابٌ من أبواب الهوى، إلا فيما أُمِر به العبدُ أو نُدِب إليه. قال أبو سليمان الداراني: إن قدرتَ أن لا يكونَ لك وقتٌ معتادٌ في الأكل تنازعُك نفسُك إليه فافعل. وقال: لأن أتركَ لقمةً مِن عشائي أحبُّ إليَّ من قيامِ ليلة. أي لنقصِ النفس من المعتاد والتقلُّل أيضاً. وقال أيضاً: تركُ شهوةٍ مِن شهواتِ النفس أنفعُ للقلب مِن صيامِ سنةٍ وقيامِها، هذا كلُّه خشيةَ إيلافِ العادات، فتنازعُ النفس إلى الأِلْف فلا يمكنك ضبطُها لغلبةِ الوصف، ثم حُسنُ الصبر على ما أُمِر به، وحسنُ الصبر عمّا نُهي عنه؛ فإن ذلك مِن أفضلِ الأعمال، وله فضائلُ المزيد والكمال.

وفي حديث أبي هريرة عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اتقّ المحارم تكن مِن أعبد الناس، وفي لفظ آخر: تكن مِن أورعِ الناس**، ومن أحسن ما سمعتُه مِن عظيم المثوبة في الصبرِ عن المعصية ما حدثونا في الإسرائيليات: أنَّ رجلاً تزوَّج امرأةً من بلدة، وكان بينهما مسيرةُ شهر، فأرسل إلى غلامٍ له من تلك البلدة ليحملَها إليه، فسار بها يوماً، فلما جنَّهُ الليل أتاه الشيطان فقال له: إنَّ بينك وبين زوجِها مسيرةَ شهر، فلو تمتعتَ بها ليالي هذا الشهر إلى أن تصلَ إلى زوجها، فإنها لا تكره ذلك وتُثْنِي عليك عند سيدِك فتكون

أحظى لك عنده، فقام الغلام يصلي فقال: يارب، إنَّ عدوَّك هذا جاءني فسوَّل لي معصيتَك، وإنه لا طاقةَ لي به في مدة شهر وأنا أستعيذك عليه يارب فأعِذني عليه، واكفني مؤونتَه، فلم تزل نفسُه تُراودُه ليلتَه أجمع، وهو يجاهدُها حتى أسحَر، فشدَّ على دابة المرأة وحملَها وسار بها، قال: فرحمه الله تعالى، فطوى له مسيرةَ شهر، فما برق الفجرُ حتى أشرفَ على مدينةِ مولاه، قال: وشكر اللهُ تعالى له هربَه إليه مِن معصيته، فنبَّأه، فكان نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل.

ثم إعدادُ العدة لما يستقبل إذا كان ذلك مِن مريدِي السعيِ للآخرة والشغلِ بالنفسِ والإقبالِ عليها دون الناس فقد وجب ذلك، والزهد في فضولِ الشهوات واجتنابِ كثيرٍ من الشبهات فقد افترض ذلك، وقِلَّةُ الذكر للناس ولأمور الدنيا فقد حسَّن ذلك. ومنه غفلةٌ وقسوةٌ للقلب، وكثرةُ الذكر لله تعالى والتذكير به وذكر آلائه ونعمائه وحسن الثناء عليه والمدح له، وقد كان بعض العلماء يقول: مَن جالَسَنا فليجتنِب ذكرَ ثلاثِ خصالٍ وليقضِ فيما يشاء: يجتنب ذكرَ الناس فإنهم داء، ويجتنب ذكرَ الدنيا فإنها قسوة، ويجتنب كثرةَ الطعام فإنها شَرَه. وقال عالمٌ آخر: مَن جالَسَنا فلا يذكر إلا اللهَ وحدَه، فإن كان لابدَّ مِن ذكرِ غيرِه فليذكرِ الآخرةَ وليذكُرِ الصالحين.

وكان سهل رحمه الله تعالى ورضي عنه يقول: السنَّة ما كان عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وأولُ السنةِ الزهدُ في الدنيا لأنهم كانوا زاهدين. وكذلك جاء الخبرُ في وصفِ الفرقةِ الناجية: مَن كان على ما أنا عليه وأصحابي فقد كانوا على هذه الأوصاف التي ذكرناها، فمن كان على ذلك فهو على السنَّة. فهذه فضائل السنَّة وهو مزيد الإيمان وحسن اليقين.

)

## ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة

قال الله جلَّ ثناؤه وصدقت أنباؤه: L m l k j i h g M الجاثية: 18، فالشريعةُ اسمٌ مِن أسماء الطريق، وهو اسمُ الطريقِ الواضحِ المستقيمِ الواسع، وهو وصفٌ لطريقٍ جامعٍ لجوامعِ المحاجِّ كلِّها، كأنه طريقٌ يستوعب ويجمع سائرَ الطرق، وللطريقِ أسماءٌ كثيرة، منها: الصراط المستقيم، والسبيل، والمنهاج، والمحجَّة والمَنسك. وجاء مِن اشتقاقِ هذا اللفظ أربعةُ أسماء: شارِع، ومُشرعة، وشِرعة، وشريعة؛ وهو اسم لأوسعِها وأوعَبِها لجميعِ الطرق.

فالشريعةُ تشتمل على اثنتي عشرة خصلةً، هي جامعةٌ لأوصافِ الإيمان؛ أول ذلك الشهادتان وهي الفِطرة، والصلوات الخمس وهي الملَّة، والزكاة وهي الطُّهرة، والصيام وهو الجُنَّة، والحج وهو الكمال، والجهاد وهو النصر، والأمر بالمعروف وهو الحجة، والنهي عن المنكر وهو الوقاية، والجماعة وهي الألفة، والاستقامة وهي العصمة، وأكل الحلال وهو الورع، والحبُّ والبغض في الله وهو الوثيقة. وقد روينا بعضَ هذه الخصال عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد جاء نحوها عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.

## ذكر شرط المسلم الذي يكون به مسلماً

لا يكون معتقداً لبدعة، ولا مقيماً على كبيرة، ولا آكلَ الحرام، ولا طاعناً على صالح السلف، ويكون كافَّ اللسانِ واليدِ عن أعراضِ المسلمين وأموالهم، ويكون ناصحاً لجميع المسلمين مُشفقاً عليهم، يسرُّهُ ما يسرُّهم ويسوؤه ما يسوؤهم، سيما لأئمتِهم، داعياً لجُملتهم، ويكون مخلصاً لأعماله كلِّها لله تعالى. ورُوي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **والذي نفسي بيده لا يسلمُ عبدٌ حتى يُسلِم قلبُه ولسانُه، ولا يؤمنُ حتى يأمنَ جارُه بوائقَه. وروي عنه: ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله تعالى،**

**ومناصحةُ ولاةِ الأمر، ولزومُ الجماعة، فإنّ دعوتَهم تُحيط مِن ورائهم.** ومن اجتمعت فيه هذه الخصالُ في زماننا هذا فهو مِن أولياءِ الله عزَّ وجلّ؛ وهذه أولُ ولاية وأولُ نظرةٍ من الله تعالى حامية عاصمة راحمة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبدالله: اكتب إليَّ بسيرةِ عمر رضي الله تعالى عنه في الناس، فإني أحب أن أسيرَ بها فكتب إليه: أما بعد فإنكَ لستَ في زمانِ عمر، ولا لكَ رجالٌ كرجالِ عمر؛ فإن عملتَ في زمانك هذا ورجالك هؤلاء بسيرةِ عمر فأنت خيرٌ مِن عمرَ رضي الله تعالى عنه.

## ذِكرُ حُسنِ إسلام المرء وعلامات محبة الله تعالى له

يكون محباً للخيرِ وأهله، مُجانباً للشرِّ وأهلِه، مسارعاً إلى ما نُدب إليه أو أُمِر به إذا قدرَ عليه، حزيناً على ما فاتَ من ذلك إذا أعجزه، تاركاً لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، بريئاً من التكلّف؛ وهو اجتناب ما لم يؤمَر به ولم يُندَب إليه مِن تركٍ وفعلٍ، مُصلِّياً للخمس في جماعة إذا أمنَ الفتنةَ وسلِم له دينُه، ومجتنباً للغيبة ولذكرِ الناس، يحبُّ للكافَّةِ ما يحبُّ لنفسِه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، مسارعاً إلى الخيرات، مسابقاً إلى أعمال البرِّ والقُربات، طويلُ الصمت، ليِّنُ الجانب، ذليلاً للمؤمنين، عزيزاً على المتكبرين، لا يُماري في الباطل ولا يداهِن في الدين، ولا يبغضُ على شيء من الحق وإن كان عليه، أو من أبعد الناس منه، ولا يحبُّ على شيءٍ من الباطل وإن كان له أو من أقرب الناس إليه، كارهاً للمدح ممن يحبه، قابلاً للنصح ممن يبغضه، يكون المدح والذم يجريان من قلبه مجرى واحد، صدوقاً فيما يضرُّه، غير متصنِّع بما يستعجلُ نفعه، سريرتُه أفضلُ مِن علانيَّته، محتملاً لأذى الخلق، صابراً على بلائهم، منفرداً بحاله عنهم، تاركاً لكثيرٍ مِن مجالسِهم واجتماعِهم خشيةَ دخولِ الشبهات عليه، وخوفاً من تغيُّرِ قلبِه له.

)

ومن اجتمعت فيه هذه الخصالُ في زماننا هذا فهو مِن المريدين للآخرة، وهذه ولايةٌ ثانية ونظرةٌ ثانية. ويُقال: إنَّ أبدالَ كلِّ قرنٍ على قدرِ زمانِهم، وفي كلِّ قرنٍ سابقون ومقرَّبون.

وقال بعض أهل التفسير في **قوله تعالى:** M ¨ © عَن » L **الإنشقاق:** 19، قال: لتركبنَّ في كل قرن في طبقةٍ من الناس على حال لم يكونوا عليه. وأكثر ما قيل في القرن مائة سنة، وأقل ما قيل فيه أربعون، وأوسطُ ذلك وأعدلُه وأشبهه بحمل الأحاديث والأخبار فيه أنَّ القرنَ سبعون سنة؛ وهو قول عليّ رضي الله عنه، لأن رأس المائتين تمام ثلاثة قرون من المبعث، ونحن الآن في القرن السادس من أول سنة أربعين وثلاثمائة وآخره سنة عشر وأربعمائة، ويقال: إن الشمس تطلع من المغرب بعد القرن السابع وهو رأس الثمانين وأربعمائة وعلى قول من قال: القرن مائة سنة تطلع بعد سبعمائة سنة، وفي الخبر: أنَّ ملكَ الموت إذا جاء لقبضِ روحِ المؤمن قال له ملكاه: أنظِرنا حتى نملأ مسامعَه مِن الثناءِ الحسن، فيقولان: جزاك الله عنّا خيراً، فإنك كنتَ ما علِمنا سريعاً في طاعة الله تعالى، بطيئاً عن معاصيه، تحبُّ الخيرَ وأهلَه، وتعمل بما استطعتَ منه، فرُبَّ كلامٍ حسنٍ قد أسمعتَنا ومجلسٍ كريمٍ قد أجلستَنا، فأبشِر بالموعودِ الصدقِ بيننا وبينك الوقوفُ بين يدي الله تعالى بالشهادة لك عنده غداً.

## ذكر حق المسلم على المسلم وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين

وذلك عشرُ خصالٍ مجموعة من ستة أحاديث؛ حديث عليّ رضي الله عنه: للمسلم على المسلم ستُّ خصالٍ واجبة، وحديث أبي أيوب الأنصاري: حق المسلم على المسلم ستّ خصال إن ترك منها شيئاً ترك حقّاً واجباً عليه، وحديث البراء بن عازب: أمرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبع ونهانا عن سبع، وحديث ابن مسعود: للمسلم على المسلم أربع خلال واجبات، وحديث سعد وأبي هريرة في معنى ذلك، وحديث أنس:

أربع من حق المسلم عليك إلا أنه ذكر غير ذلك، فاختلفت الألفاظ في الخصال واتفقت المعاني. وذكر بعضُهم في حديثه ما لم يذكره الآخر، فجمعنا اختلافَهم وعددَ جمل الخصال فكانت عشرة إلا ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه؛ فإنه حديث غريب مؤكد للخصال وزائد عليها في الألفاظ نذكره بعدها.

فأما الخصال العشر التي كثُرت الأخبار بها فهي أن يُسَلِّمَ عليه إذا لقيَه، ويجيبَه إذا دعاه، ويشمِّتَه إذا عطس، ويعودَه إذا مرض، ويشهدَ جنازتَه إذا مات، ويبرَّ قسمَه إذا أقسمَ عليه، وينصحَ له إذا استنصَحه، ويحفظَه بظهرِ الغيب إذا غاب عنه، ويحبَّ له ما يحبُّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

فأما حديث أنس: فروينا عن إسماعيل بن أبي زياد عن أبان بن عيَّاش عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أربعٌ مِن حقِّ المسلم: أن تُعينَ مُحسنَهم، وأن تستغفرَ لمذنِبِهم، وأن تدعوَ لمُدبرِهم، وأن تُحبَّ تائبَهم** ؛ فهذه الخصالُ داخلةٌ في تلك الخصال وجامعةٌ لها في معنى النصيحة لأخيك، وفي أن تحبَّ له ما تحبُّ لنفسِك، وقد كان ابن عباس يؤكد هذا المعنى خاصةً للمسلم على المسلم، ويفرضُه فرضَ الحلال والحرام، ويفسِّر به قوله: رحماءُ بينهم، فحدثناه في رواية جبير عن الضحاك عنه في قول الله عزّ وجلّ: رحماء بينهم؛ يعني متوادِّين بينهم، يدعو صالحُهم لطالِحِهم، إذا نظر الطالحُ إلى الصالحِ مِن أمةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: اللهم بارِك له فيما قسمتَ له مِن الخير، وثبِّته عليه، وانفعنا به؛ وإذا نظر الصالحُ إلى الطالحِ مِن أمةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: اللهم اهدِه، وتُب عليه، واغفِر له، قال ابنُ عباس: هذه الآيةُ مِن حلالِكم وحرامِكم؛ فهذه الخصال المذكورة جامعةٌ مختصرةٌ في حُرمةِ المسلمين ووجوبِ حقِّ بعضِهم على بعض، لا عذرَ لأحدٍ منهم في تركِها إلا مَن عذَرتهُ السنَّة، ويشهد له العلم، وبعضُها أوكدُ من بعض، وأكملُ المؤمنين إيماناً أقومُهم بها وأسرعُهم إليها، قد

)

كثُرت بها الروايات، وقد كان بعض السلف تركوا منها ثلاثة: إجابةَ الدعوة، وعيادةَ المرضى، وشهودَ الجنائز، إلا أنّ هؤلاء اعتزلوا الناسَ أصلاً وكانوا أحلاسَ بيوتِهم لم يخرجوا إلا إلى الجُمُعات، ومنهم مَن تركَ الجماعات، وكان منهم مَن تبوَّأ الجبَّانات وفارقَ الأمصارَ والإخوان.

وقال سهل: ما أعلم شيئاً أشدَّ مِن حقوق الناس. وكان يقول: مَن كفَّ أذاه عن الخلق مشى على الماء، وقال أبو يزيد وغيره: بُغيةُ العقلاءِ السلامةُ مِن الله تعالى، ومَن أراد السلامةَ مِن الله تعالى فليسلمِ الناسُ منه، فمَن أرادَ أن يسلمَ الناسُ منه فليبعُد منهم، فقد أنشدتُ لبعضِهم في معناه:

الناس بحر عميق ... والبعد منهم سلامه

وقد نصحتك فانظر ... لا تدركنك ندامه

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: اتقوا اللهَ واتقوا الناس. وعن ابن عباس مثلها: لولا مخافةُ الوسواس لم أجالِس الناس. وقال مرةً: لدخلتُ بلاداً لا أنيس بها وهل يُفسد الناسَ إلا الناس؟ وقال بعض السلف: كلما كثُرت المعارف كثُرت الغرماء، وكلما أطالت الصحبة توكدت الحقوق، وقال بعض العلماء: مَن عرفَ نفسَه استراح، ومن عرفَ الناسَ تعنى. وقال بشر بن الحارث في ضدِّه: مَن عرف الناسَ استراح. وقد قيل في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: مداراةُ الناس صدقة، قال: مداراتُهم في العلوم، ومفارقتُهم في العقول. وفي أحد الوجوه من قوله تعالى: M _ ` a b L المؤمنون: 96، قال: هي المداراة. وفي الخبر عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَن أُعطِي حظَّه مِن الرفق أُعطِي حظَّه مِن خيرِ الدنيا والآخرة، ومَن مُنِع حظَّه مِن الرفق مُنِع حظَّه مِن الدنيا والآخرة.**

## ذكر سنن الجسد

وفي الجسد اثنتا عشرة سنة، وذلك مأخوذٌ من ثلاثة أحاديث متفرقة: منها حديثُ جبريلَ عليه السلام حين استبطأه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوحي؛ خمس منها في الرأس وهي: المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقصُّ الشارب، وفرقُ شعر الرأس؛ ومنها سبع في الجسد: وهي الختان، والاستحداد، وانتقاص الماء وهو الاستنجاء، ونتفُ الإبط، وتقليم الأظافر، وغسل البراجم، وتنظيف الرواجب، فأما البراجم فهي معاطفُ ظهورِ الأنامل، لم تكنِ العربُ تكثرُ غسلَ ذلك لتركِها غسل أيديها عقيب الطعام، فكان يجتمع في تلك المكاسر الوسخ فأُمِروا بغسلِها، قال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة: كنا نأكلُ الشَواء ثم تُقام الصلاةُ فنُدخِل أصابعَنا في الحصباء، ثم نفركُها في التراب ونكبِّر. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما كنا نعرف الأشنان على عهدِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنما كانت مناديلُنا بواطنَ أرجلِنا، كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها. ويُقال: أول ما ظهر من البدع بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع: المناخل، والأشنان، والموائد، والشبع. فهذه كلُّها في شأنِ الجوف وهو شرُّ وعاءٍ مجوَّف.

وأما الرواجب فهي جمع راجبة، وهي واحدة الأنامل لم تكن العرب يتفق لها الجلمان في كل وقت، فيقصُّون أظفارَهم، فوقَّت لهم رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقصِّ الأظفار ونتفِ الإبط وحلقِ العانة أربعين يوماً، إلا أنه أمرَ بتنظيف ما تحتَ الأظافر لأنه مجمَع التَّفَث؛ وهي الرواجب إلى أن يقصوا أظفارهم. وجاء في الأثر: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استبطأ الوحي، فلما هبط جبريلُ عليه السلام قال له: كيف ننزلُ عليكم وأنتم لا تغسلون براجمَكم ولا تنظِّفون رواجبَكم، وقلحاً لا تستاكون؟ مُر أمَّتك بذلك. ويقال لما تحت الأظافر من الوسخ الأف، وهو الذي يقال أف وتف؛ فالأف وسخ الظفر،

)

والتف وسخ الأذن، وقيل: بل التف كلمة اتباع للمبالغة في التأذي بالقذر المؤذِي؛ ومن ذلك قولهم في الإتباع جائع نائع وعطشان نطشان ولا أثر له ولاعنبر، وقيل من هذا قول الله تعالى: 7 8 wM x y z { | } ~ قَوۡلٗا كَرِيمٗا L الإسراء: 23، أي لا تعِبهما بما تحت الظفر من الوسخ، وقيل: لا تؤذِهما تأذّيك بما تحتَ ظفرك من الأذى أو لا تؤذِهما بمقدار ذلك.

.

## ذكر ما في اللحية من المعاصي والبدع المحدثة

قد ذُكر في بعض الأخبار: أنَّ لله تعالى ملائكة يُقْسِمُون والذي زيَّن بني آدم باللحى، ويُقال: إنَّ اللحية مِن تمام خَلقُ الرجل وبها تميَّز الرجالُ من النساءِ في ظاهر الخَلق. وفي وصفِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه كان كثَّ اللحية، وكذلك كان أبوبكر، وكان عثمانُ طويلَ اللحيةِ دقيقَها، وكان عليٌّ رضي الله تعالى عنه عريضَ اللحية، قد ملأت ما بين منكبيه.

ويُقال: إنَّ أهلَ الجنةِ مُردٌ إلا هارون أخا موسى عليهما السلام فإن له لحية إلى صدرِه تخصيصاً له وتفضيلاً، ووصَف بعضُ بني تميم مِن رهط الأحنف بن قيس قال: وددنا أنا اشترينا للأحنف اللحية بعشرين ألفاً. فلم يذكر حنفه في رجله ولا عوَرَه في عينه وذكر كراهية عدم لحيته وكان عاقلاً حليماً، وقد روينا من غريب تأويل قوله تعالى:

M } ~ ٱلۡخَلۡقِ مَا ¢ ¡ L فاطر: 1، قال اللحي وفيه وجوه كثيرة، وذكر عن شريح القاضي قال: وددت لو أنَّ لي لحية بعشرة آلاف.

وقال بعض الأدباء: في اللحيةِ خصالٌ نافعة منها: تعظيمُ الرجل والنظرُ إليه بعينِ العلمِ والوقار، ومنها رفعُه في المجالس والإقبالُ عليه، ومنها تقديمُه على الجماعة وتعقيلُه

وفيها وقاية للعرض؛ يعني إذا أرادوا شتمه عرضوا له بها فوقَت عرضه، وقال أبو يوسف القاضي: من عظُمت لحيتُه جلَّت معرفتُه.

ففي اللحيةِ من خفايا الهوى ودقائقِ آفاتِ النفوس، ومِن البِدع المحدثةِ اثنتا عشرة خصلة بعضُها أعظمُ مِن بعض وكلُّها مكروهة، قد كنا أجملنا ذلك عدداً في باب آفات النفوس، فأما تفسيره فإنَّ من ذلك خضابُها بالسواد لأجل الهوى وتدليس الشيبة، وخضابها بالحمرة والصفرة مِن غير نية تشبيهاً بالصالحين والقراء من السنَّة، وتبييضها بالكبريت وغيره استعجالاً لإظهار عُلوِّ السِّنِّ وسترِ الحداثةِ لأجل الرياسة والتعظيم ليشهد عند الحكام أو لينفق بذلك حديثَه ويدعي بالسنِّ مشاهدةَ مَن لم يره، فعل ذلك بعض المحدثين وبعض الشهود. ومِن ذلك نتفُها أو نتفُ الشيب منها تغطيةً للتكهُّل، ومنها تقصيصُها كالتعبية طاقة على طاقة للتزيُّن والتصنُّع، ومن ذلك النقصان منها والزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغ مِن شعر الرأس حتى يجاوزَ عظمَ اللحى وذلك هو حدُّ اللحية، أو ينقص من العظمين إلى نصف الخد وذلك مُثلَة وهو نقصان من اللحية، ومن ذلك تسريحُها لأجل الناس تصنُّعاً أو تركها لأجل الناس شعثةً مفتلة مغبرَّة إظهاراً للزهد أو التهاون بالقيام على النفس لأنه قد عُرف بذلك، ومن ذلك النظر إلى سوادها عجباً بها وخيلاء وغرَّة بالشباب وفخراً؛ ومن ذلك النظر إلى بياضها تكبُّراً بكبر السنّ وتطاولاً على الشبان فيحجبه نظرُه إليها عن النظر إلى نفسه مِن تعلُّم العلم وتعلُّم القرآن الذي لا يسعه جهلُه والسؤال عمّا يجهله استصغاراً لغيره من الشباب، أو حياءً مِن شَيبِه، أو استنكافاً منه، فيظنُّ بجهلِه أنَّ كثرةَ الأيام التي بيَّضت شعرَ لحيته أعطته فضلاً أو جعلت فيه علماً، ولا يعلم أنَّ العقلَ غرائزُ في القلوب وأنَّ العلمَ مواهبُ مِن علام الغيوب، ومن كانت غريزتُه الحمق وطبيعتُه الجهل كثُرت حماقتُه كلما كبر وعظمُت جهالتُه إذا أسنّ.

)

وقد رأينا جميعَ ذلك في كثيرٍ من الناس، وهذا كلُّه مُحدثٌ وهو يضاهي سننَ الجسد الاثنتي عشرة في العدد، ومما جاء في جمل معاني ما ذكرناه من الكراهة أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **حُفُّوا الشوارب واعفُوا اللحى**، فقوله: حفُّوا أي اجعلوها حفًّا في الشَّفة أي حولها، لأنَّ حفافَ الشيء حولَه، ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: M ! " # $ % & L: الزمر: 75، وكان بعضُ العلماء يكره حلقَ الشارب حتى تظهر البشرة ويراه بدعة، وقد كان مالك بن أنس وبعض علماء المدينة يقولون: حلقُ الشارب مُثلة إنما هو الأخذ منه حتى يبدو الإطار، والإطار حروف الشفة من فوق ، وفي الحديث لفظة أخرى: أحفُوا الشوارب، والإحفاء هو الاستئصال والاستقصاء؛ وهو أبلغ من قوله: حفوا، ومن هذا قوله عزّ وجلّ:M ¨ © فَيُحْفِكُمْ » L محمد: 37 أي يستقصي عليكم.

وقد كان كثيرٌ من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحفي شاربَه، ونظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربَه، فقال: ذكَّرتني أصحابَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فقلت هكذا كانوا يحفون شواربهم، فقال: نعم وأشد من هذا كالحلق، وليس الإحفاء حلقاً إلا أنه شبيهٌ به، وقد روينا في هذا الحديث ثلاثة ألفاظ أُخر وهو: **خذوا من الشوارب**، فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأخذُ مِن شاربِه. ورُوِي: **قصُّوا الشوارب، وجزُّوا الشوارب**؛ فهذه الثلاثة بمعنى واحد وهو يقتضي أخذَ بعضه وترك البعض ليست كالإحفاء، وقال المغيرة بن شعبة: نظر إليَّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد عفا شاربي فقال: تعال، فقصَّه لي على سواك، فهذا نصٌّ مِن فعلِه في أخذِ الشارب، وقد رويت لفظةً غريبة طروا الشوارب طراً؛ والطرّ أن يؤخذ من فوق الشارب ومن تحته حتى يستدق، والطرّ الدقيق المستطيل المستخرج من شيء أكثر منه حتى يحمل على وصف دونه أو أصغر منه؛ ومن هذا سميت الطرة كأنها مستخرجة من شيء كثير

مجعولة على وصف لطيف، وكان بعض السلف يترك سِباليه وهما طرفا الشارب ويحفي وسطَ شاربه، وروي هذا عن عمر وغيره، وكذلك رأيت أبا الحسن بن سالم رحمه الله تعالى يفعل، فأما قوله: وأعفوا اللحى يعني كثِّروها، ومن هذا قول الله عزّ وجلّ M حَتَّىٰ عَفَواْ L الأعراف: 95، أي كثُروا، وفي الخبر: أنّ اليهود يعفُون شواربَهم ويقصُّون لحاهم، فخالِفوهم. وردَّ عمرُ بن الخطاب وابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادةَ رجل كان ينتفُ لحيتَه، ونتف الفينكين بدعة؛ وهما جنبتا العنفقة.

شهد رجلٌ عند عمر بن عبد العزيز بشهادة، وكان ينتف فينكيه فردّ شهادته. وورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: النهي عن نتف الشيب وقال: هو نور المؤمن ونهى عليه السلام عن الخضاب بالسواد قال: هو خضاب أهل النار، وفي لفظ آخر: الخضاب بالسواد خضاب الكفّار. وأمر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر أن يغيِّرَ شيبَ أبيه، وقال: جنِّبه السواد، وقال: هو خضابُ أهلِ النار.

وتزوج رجلٌ على عهدِ عمرَ رضي الله عنه وكان يخضبُ بالسواد فنصل خضابُه وظهرت شيبتُه فرفعَه أهلُ المرأة إلى عمر، فردَّ نكاحَه وأوجعَه ضرباً، وقال: غررتَ القومَ بالشباب ودلَّست عليهم شيبتَك. وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصفرة خضاب المسلمين، والحمرة خضاب المؤمنين، وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة، ويقال: أوّل مَن خضب بالسواد فرعونُ لعنه الله. وقال سري بن المغلس السقطي: في اللحية شركان: تسريحُها لأجل الناس، وتركُها متفتلة لإظهار الزهد. وقال أيضاً: لو دخل عليَّ داخلٌ فمسحتُ لحيتي لأجله ظننتُ أني مشرك. وعن كعب وأبي الجلد وصفَا قوماً يكونون في آخر الزمان يقصُّون لحاهم كذنبِ الحمامة ويعرقفون نعالهم كالمناجل أولئك لا خلاقَ لهم. وذكر أيضاً عن جماعة أنَّ هذا مِن أشراط الساعة. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

)

وَسَلَّمَ: يكون في آخرِ الزمانِ قومٌ يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحةَ الجنة. وروى أبو المهزم عن أبي هريرة أنَّ أصحابَ الدجال عليهم السيجان شواربُهم كالصياصي ونعالُهم مخرطة؛ يعني شواربهم ملس تلوح، وأصل الصياصي القرون وهو جمع صيصة ومنه صيصة الديك الظفر الثاني الأملس مؤخر رجله كأنه عظم، وقوله عليهم السيجان يعني الطيالسة وهو جمع ساج، وقوله: نعالهم مخرطة أي لها أعناق طوال معرقفة كالخراطيم وهي أكمام الأباريق. وكان ابن عمر يقول للحلاق: أبلِغ العظمين فإنهما منتهى اللحية؛ يعني حدَّها، ولذلك سميت لحية لأن حدّها اللحى فالزيادة على ذلك الحد والنقصان منه محدَث.

## ذكر ما جاء في فعلِ بعض ذلك واستحبابه

إنَّ من العلماء مَن كان يأخذ مِن لحيته في المناسك وغيرها، وإن قبضَ الرجلُ على لحيته وأخذَ ما تحتَ القبضة فلا بأس، قد فعله ابنُ عمر وجماعةٌ من التابعين واستحسنَه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة وترْكُها عافية على خِلقتِها أحبّ إليّ، وقد روينا خبراً : مِن سعادةِ المرء خفَّةُ لحيتِه، إلا أنَّ بعضَ الرواة رواهُ على معنى آخر فإن لم يكن صحَّفه فهو غريب، كان يقول فيه خفة لحيته أي بتلاوة القرآن ولا أراه محفوظاً، وقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم الصالحون بعده يسرِّحون لحاهم لأجل الدين والسنّة، وتنظيفاً للطهارة، ونزع التفث من القمل وغيره، ولإسقاط شعر ميت إن كان هناك. وقد كان مِن الزّهاد مَن يترك لحيتَه متفتلة لا يسرِّحها شغلاً عن نفسه. والصدقُ بعينه حسن، والصدق في كل شيء حسن. قال بعضهم: رأيتُ داودَ الطائي منفتلَ اللحية، فقلت: يا أبا سليمان لو سرَّحت لحيتَك، فقال: إني إذاً لَفارغ.

إلا أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدهنُ شعرَه ويرجِّله غبّاً، وأمَر بذلك فقال: وادهنوا غبّاً، وقال: مَن كانت له شعرةٌ فليُكرِمها. ودخل رجلٌ ثائرَ الرأس أشعثَ

اللحية فقال: أما كان لهذا دهنٌ يسكِّن به شعرَه؟ ثم قال: يدخل أحدُكم كأنه شيطان. وقد روينا في خبر غريب: **كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسرِّح لحيتَه في كل يوم مرتين**، وفي خبرٍ أغرب منه قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: اجتمع قومٌ ببابِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرج عليهم فرأيتُه يطَّلع في الجُب ليسويَ مِن رأسِه ولحيتِه، وفي الخبر المشهور: أنه كان يمشط لحيتَه في كل يوم، وأنّ المشط والمدرى لم يكن يفارقه في سفر ولا حضر؛ فهذه سنّة العرب المعروفة فيهم، وكان عليه الصلاة والسلام عليها، وكانت من أخلاقه، وقد كان الشباب يتشبهون بالكهول تفضيلاً للكهول غير عُجب بالشباب ولا فخر بالحداثة.وفي الخبر: خيرُ شبابِكم مَن تشبَّه بشيوخكم، وشرُّ شيوخكم مَن تشبَّه بشبابكم، وفي الحديث: **إنّ من إجلال الله تعالى إجلال ذي الشيبة المسلم.**

وقد كان الشيوخ يقدِّمون الشبابَ ويرون فضلَهم بالعلم والدين تواضعاً وإخباتاً لا تكبُّراً بالكبر ولا غلوّاً. كان عمر رضي الله تعالى عنه يقدِّم ابنَ عباس وهو حدثُ السنِّ على أكابر الصحابة ويسأله دونهم. وروي عن ابن عباس وغيره: ما آتى اللهُ تعالى عبداً العلمَ قط إلا شاباً والخير كلُّه في الشباب، ثم تلا قوله تعالى:M 3 4 5 6 7 8 9 : L الأنبياء: 60 وتلا قوله سبحانه:M ¨ © ءَامَنُواْ » L الكهف: 13، **وقوله تعالى:** M & ' ) L **مريم:** 12 .

وقد كان أنس بن مالك إذا ذكر رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قُبِضَ وليس في شعرِ رأسِه وشعر لحيته عشرون شعرة بيضاء، فقيل: ولِمَ يا أبا حمزة وقد أسنّ؟ قال: لم يشِنهُ الله تعالى بالشيب، قيل: أو شَينٌ هو؟ قال: كلكم يكرهه.

ويُقال إنّ يحيى بن أكثم وليَ القضاء وسنُّه إحدى عشرون سنة، فقال له رجل ذاتَ يوم وهو في مجلسه يريد أن يحشِّمَه بذلك كم سنُّ القاضي أيده الله تعالى؟ فقال: مثلُ سنِّ

)

عتَّاب بن أسيد حيث ولاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمارةَ مكة وقضاءها، فأفحمَه. وروينا عن مالك بن معول قال: قرأتُ في بعض كتب الله عزَّ وجل: لا تغرَّنَّكم اللحى، فإن التيسَ له لحية. وقال بعض الأدباء: كلما طالتِ اللحيةُ تشمَّر العقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: إذا رأيتَه طويلَ القامة صغيرَ الهامة عريضَ اللحية فاقضِ عليه بالحمَق، ولو كان أمية بن عبد شمس. وقال معاوية رحمه الله تعالى: يتبيَّن حمقُ الرجل مِن طولِ قامتِه وعِظَمِ لحيته، وفي كنيتِه ونقشِ خاتَمِه. وكان إبراهيم النخعي ومثلُه من السلف يقول: عجبتُ لرجلٍ عاقلٍ طويلِ اللحية كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين، فإن التوسطَ في كل شيء حسن. وأنشدتُ لبعض الظرفاء:

لا تعجبنَّ بلحيةٍ ... كبُرت منابتُها طويله
يهوي بها عصفُ الريا ... ح كأنها ذنبُ الحسيله
قد يدركُ الشرفَ الفتى ... يوماً ولحيتُه قليله

وأنشد لبعض العرب:

لعمرُك ما الفتيان ... إن تنبُتِ اللحى
ولكنما الفتيان ... كل فتىً ندى

ولم يكن الأشياخُ يستنكفون أن يتعلَّموا مِن الشباب ما جهلوا ولا يزرُون عليهم لصِغَر سنِّهم، إذ الفضلُ بيدِ الله يؤتيه مَن يشاء، لا مانع لما أعطى اللهُ مِن صبيٍّ أو غيره ولا معطي لما منع الله مِن كبيرٍ أو غيره. وقال أبو أيوب السختياني: إني أدركتُ الشيخَ ابنَ ثمانين سنة يتبع الغلامَ يتعلم منه، فيقال له: تتعلمُ مِن هذا!؟ فيقول: نعم، أنا عبدُه ما دمتُ أتعلَّم منه. وقال عليّ بن الحسن: مَن سبق إليه العلمُ فهو إمامُك فيه، وإن كان أصغرَ سنّاً منك، وقيل لأبي عمرو بن العلاء: أيحسُن للشيخِ الكبير أن يتعلمَ مِن الصغير؟ فقال: إن كانت الحياة تحسُن به فإن التعلُّم يحسُن به، فإنه يحتاج إلى العلم ما دام حيّاً. وقال يحيى بن معين لأحمدِ بنِ حنبل وقد رآه يمشي خلفَ بغلةِ الشافعي رضي

الله تعالى عنه: يا أبا عبد الله تتركُ حديثَ سفيان بعلوٍّ، وتمشي خلفَ بغلةِ هذا الفتى وتسمع منه!؟ فقال أحمد: لو عرفتَ منه ما أعرفُ لكنتَ تمشي مِن الجانب الآخر، إنَّ علمَ سفيان إن فاتَني بعلوٍّ أدركتُه بنزول، وإنَّ عقلَ هذا الشاب إن فاتَني لم أدركه بعلوٍّ ولا نزول. وسمعتُ أبا بكر بن الجلاء يقول: إني لأرى الصبيَّ يعمل الشيءَ فأستحسنُه فأقتدي به فيكون إمامي فيه، وما رأيتُ أشدَّ تواضعاً منه على علمِه وزُهدِه.

فأما معنى الخبر الذي رُوي: لا يزال الناسُ بخير ما أتاهم العلمُ عن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرِهم هلكوا، فإن ابن المبارك سئل عن معنى ذلك فقال: أصاغرُهم أهل البدع، لأنه لا صغيرَ مِن أهلِ السنّة ممَّن عنده علم، ثم قال: كم مِن صغيرِ السنِّ حَملنا عنه كبيرَ علم. وقد قيل: إنَّ قولَه عن أكابرهم يعني أصحابَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا مُواطئ للخبر الآخر: لا تزال أمتي بخير ما دام فيهم من رآني، وليأتينَّ عليهم زمانٌ يُطلب في أقطارِ الأرض فلا يوجد أحدٌ رآني. كيف وقد جاءت بذلك لفظةٌ ذكرتها: لا يزال الناسُ بخير ما أتاهم العلمُ عن أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن أكابرِهم، فإذا أتاهم عن أصاغرِهم استعصى الكبيرُ على الصغير فهلكوا، أي فذلك خشيةَ أن لا يتعلَّم منه لما ذكرناه من الحياء والتكبّر والاستنكاف، ووجه آخر هذا مجازُه عندي على الخبر والكون لا على الذم لأنه قد جاء في الأثر وصف هذه الأمة في أوّل الزمان بتعلُّم صغارها من كبارها، فإذا كان آخرُ الزمان تعلَّم كبارُهم مِن صغارِهم، فإذا كان كذلك فهذا تفضيلُ الأصاغر وتشريفُ هذه الأمة على سالفِ الأمم لأنهم لم يكونوا يحملون العلم إلا عن القسِّيسين والرهبان والأشياخ العُبَّاد والزهاد، وأخبر أنّ هذه الأمة في آخر الزمان تفضُل سالفَ الأمم في أوَّل أزمنتِهم بأن يتعلمَ الكبيرُ مِن الصغير كما فضلهم الله تعالى به، فذلك أشدُّ وطأ للخبر الآخر: أمتي كالمطر

)

لا يُدرى أوّلُه خير أم آخرُه، ولمثله من الشاهد: كيف تهلك أمةٌ أنا في أولها، والمسيح ابن مريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخرِها.

وقد روينا في الخبر: لا تحقروا عبداً آتاه اللهُ تعالى علماً، فإن الله تعالى لم يحقره إن جعل العلمَ عنده.

وكان شعبة يقول: مَن كتبتُ عنه حديثاً أو تعلَّمتُ منه علماً فأنا عبدُه. وقال مرة: إذا كتبتُ عن الرجل سبعةَ أحاديث فقد استرقَّني.

فأما الخضاب بالسواد فقد يُروى أن بعض العلماء ممن كان يقاتل في سبيل الله تعالى كان يخضب بالسواد، ولكن لم يكن هذا يخضب به لأجل الهوى وتدليس الشَّيب إنما كان يعدُّ هذا مِن إعدادِ القوة مِن العدة لأعداء الله تعالى بمعنى قول الله عزّ وجلّ:

M ¨ © مَّا » ¬ ® L **الأنفال**: 60 وإظهار الشباب من القوة، وقد رمَلَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضطبَع هو وأصحابُه ليراهم الكفار فيعلموا أنَّ فيهم جلداً وقوة. ومَن صنعَ شيئاً بنيةٍ خالصةٍ صالحةٍ يريد بذلك وجهَ الله تعالى وكان عالماً بمذهبٍ له ذهب إليه فهو فاضلٌ في علمِه وفعلِه وإن كان ذلك مِن أدون أعمالِه لم يتبع أن يستنَّ به فيه لأنّا روينا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِن شرّ الناس منزلةً عند الله مَن يقتدي بسيئة المؤمن ويترك حسنته. فأخبر أنَّ للمؤمن سيئة، وأنّ مِن شرِّ الناس مَن تأسى بها معذرةً لنفسِه في هواها.

## باب ما ذكر من نوافل الركوع وما يكره من النقصان منه

**قال الله سبحانه وتعالى**: M وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ à ٱلنُّجُومِ L **الطور**: 49، روينا عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه فسَّره قال: ركعتا الفجر، وكذلك فسّر قوله تعالى M Z ] \ [ ^ L ق: 40، قال: ركعتا المغرب، وهذا على قراءة من كسر الألف،

فأما مَن نصبَها فإن معناه إدبار الصلوات أي أعقابها وأواخرها، والتسبيحُ اسم الصلاة النافلة لكون التسبيح فيها، وتسمى النافلة سبحة، فمن سنن الركوع واستحبابه إدبار الصلوات وقبلها الذي لا يستحبّ تركُ شيءٍ منه، وبعضُه أوكدُ من بعض سبع عشرة ركعة مجموع من خمسة أحاديث: حديث عليّ رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن صلاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنهار فقال: ست عشرة ركعة، وحديث ابن عمر: حفظتُ مِن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر ركعات، وحديث أبي أيوب الأنصاري في الصلاة قبل الظهر، وحديث أنس بن مالك وعائشة في الصلاة بعد العشاء الآخرة، وفي الوتر وخبر أم حبيبة الوارد بالفضل من العدد: مَن صلّى في يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بنى اللهُ تعالى له بيتاً في الجنة، وخبر غريب رواه أهل البيت مواطئ لبعض ما ذكرناه: أنّ اللهَ تعالى فرض عليكم في اليوم والليلة سبعَ عشرةَ ركعة، وسننتُ لكم مثلَها؛ أول ذلك ركعتا الفجر وهما سنّة مؤكدة، وأربعٌ قبل الظهر وهنَّ مستحبَّات مؤثرة في الاستحباب، وركعتان بعدها وهما سنّة، وأربع قبل العصر رجاء أن يدخل في دعوةِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وركعتان بعد المغرب وهما سنّة مؤكدة، وثلاث ركعات الوتر مؤكدة.

فأما حديث عليّ رضي الله عنه فإنه ذكر مِن صلاةِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً لم يذكره غيره: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلّي الضحى ستَّ ركعات في وقتين، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام فصلّى ركعتين وهذا هو الإشراق وهو الورد الثاني من النهار، وإذا انبسطتِ الشمسُ وكانت في رُبعِ السماءِ من المشرق، ومثلها حين تكونُ في ثلاثةِ أرباع السماء من صلاة العصر صلّى أربعاً، وهذا هو الضحى الأعلى والورد الثالث من النهار، والمواظبةُ على هذه الصلاة بمراعاةِ هذين الوقتين مِن عزائم الأعمال وفواضلِها.

)

وذكرت أمُّ هانئ أخت عليّ رضي الله عنه أنه صلّى الضحى ثماني ركعات أطالهنَّ وحسَّنهن، ولم يَنقل هذا العددَ غيرُها. وأما عائشة رضي الله تعالى عنها فإنها ذكرت أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلّي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء لله فلم تحد.

وقد روينا في حديثٍ منفردٍ أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلّي الضحى ست ركعات، وقد روى أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً تفرّد به: أنه لم يكن يدع أن يصلي أربعاً بعد الزوال وقبلَ صلاة الظهر يقرأ فيهن بمقدار سورة البقرة، قال: فسألته عن هذه الصلاة فقال: إنَّ أبوابَ السماء تُفتَح هذه الساعة، ويُستجابُ الدعاء، فأنا أحبُّ أن يُرفعَ لي فيها عملٌ صالح، وقد جاء في حديث أم حبيبة زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفسّراً: مَن صلّى في يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بنى اللهُ له بيتاً في الجنة، ركعتين قبل الفجر، وأربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين قبل العصر، وركعتين بعد المغرب. ورواه ابن عمر في حديثه: حفظتُ من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: في كلِّ يوم عشرُ ركعات .. فذكرها إلا قولَه: وركعتين قبل الفجر، فإنه قال: تلك الساعة لم نكن ندخل فيها على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ولكن حدثتني أختي حفصة أنه كان يصلّي ركعتين في بيتها ثم يخرج. وقال في حديث: ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء، وقالت عائشة: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلّي بعد العشاء الأخيرة أربعَ ركعات، ثم ينام.

وقال أنس بن مالك: كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوتر بعد العشاء بثلاث ركعات، يقرأ في الأولى: بسبِّح اسمَ ربِّك الأعلى، وفي الثانية: قل يا أيها الكافرون، وفي الثالثة: قل هو الله أحد. وقد جاء في خبر أنه كان يصلّي بعد الوتر ركعتين جالساً وفي بعضها متربِّعاً، وفي بعض الخبر إذا أراد أن يدخل في فراشه زحف إليه وصلّى فوقه ركعتين قبل أن يرقد، يقرأ فيهما: إذا زلزلت الأرض، وسورة ألهاكم التكاثر. وفي رواية أخرى: وقل يا أيها الكافرون.

فإن ضعَّفَ العبدُ هذه السبع عشرة ركعة فجعلها أربعاً وثلاثين يداومُ عليها ويجعلها وردَه من الصلاة فهو أفضل؛ وهذا مذهبُ أهلِ البيت، واحتجُّوا فيه بخبرٍ روَوه عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: فرض اللهُ تعالى على أمتي في اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وسننتُ لهم مثلها. وإن كان الحفَّاظُ مِن أهلِ النقل يضعِّفون هذا الحديث إلا أنه قال عليه الصلاة والسلام: الصلاةُ خيرُ موضوع، فمَن شاءَ أكثر ومَن شاء أقلّ، وقال: بين كل أذان وإقامة صلاةٌ لمن شاء، فإن فعل ذلك وراعاها على ما يرتبه فهو مُقارِب لما ذكرناه آنفاً مِن السنن، والاستحباب قبل الصلوات الخمس وبعدها: ركعتان قبل الفجر، وأربع من الضحى، وأربع قبل الظهر، وأربع بعدها، وأربع قبل العصر، وست بعد المغرب، وأربع قبل العشاء وست بعدها، ثم يوتر بواحدة؛ فهذا حينئذ نحو ما رسمناه وهو مشبه لما نقلناه من الآثار، وليستند إلى الخبر المأثور وإلى فعل أهل البيت، وأكثر ما روي من صلاة الضحى ثمان ركعات، ومن صلاته بالليل ثلاث عشرة ركعة، إلا حديثاً مقطوعاً موقوفاً على طاووس رواه ابن المبارك: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلّي من الليل سبع عشرة ركعة، فهو حديث شاذ، وسائر الأخبار المسندة عن ابن عباس، وعائشة، وميمونة، وأم حبيبة؛ إنما هي إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة، واسْتُحِب أن يصلّي العبدُ قبل كل صلاة أربعاً وبعدها أربعاً إلا ما لا صلاةَ قبلها ولا صلاةَ بعدها، ثم يزيد بعد ذلك ما قسم الله تعالى له، وأن يصلّي الضحى ثمان ركعات ويواظب عليهن إذا أنشط أطالهنَّ وإذا فتَر قصرهن، فإنَّ المداومةَ على العمل عملٌ ثان، وهو مِن أفضل الأعمال وأحبِّه إلى الله تعالى، وإلا اقتصر على أربع يديمهُن، ولا أكره أن يصلّي قبل المغرب ركعتين بعد غروب الشمس، فقد قال أنس بن مالك: كان اللباب من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلّون ركعتين قبل المغرب، وكان أبيٌّ بن كعب، وعبادة بن الصامت، وأبو ذر، وزيد بن ثابت، وغيرهم من أكابر أصحاب

)

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلّونها. وقال عبادة أو غيره: كان المؤذنُ إذا أذَّن لصلاة المغرب ابتدرَ أصحابُ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السواري يصلّون ركعتين، وقال أيضاً بعضهم: كنّا نصلّي ركعتين قبل المغرب، وذاك داخلٌ في عموم قولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بين كلِّ أذانين صلاةٌ لمن شاء. وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يصلّيهما فعاب بهما الناسُ عليه، وقال مرة: لم أرَ الناس يصلّونهما فتركتهما، وقال: إن صلّاهما الرجل في بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن، وذلك استحب.

## الفصل السابع والثلاثون
## في شرح الكبائر التي تُحبط الأعمال
## وتوبق العمال وتفصيل ذلك ومنازل أهلها فيها ومسألة محاسبة الكفار

قـــــال الله تعـــــالى: M b c d e f g h i j

k l m L النساء: 31، فاشـترَط لتكفـير الـصغائرِ مـن الـسيئات اجتنابُ الكبائرِ الموبقات، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الـصلوات الخمـس، والجمعـة إلى الجمعة تكفِّر ما بينهن لمن اجتنبَ الكبائر**، وفي لفظ آخر: **كفّارات لما بيـنهن إلا الكبـائر،** فاستثنى مِـن كفّـارات الـذنوب الكبـائر، فـاختلف العلـماء مـن الـصحابة والتـابعين في الكبائر، مِن أربعٍ إلى سبعٍ إلى تسعٍ إلى إحدى عشرة فـما فـوق ذلـك، فكـان ابـن مـسعود يقول: هنَّ أربع، وكان ابن عمر يقول: الكبائرُ سبع، وقال عبد الله بن عمرو: هنّ تسع، وكان ابن عباس إذا بلَغه قولُ ابنِ عمر إنَّ الكبائر سبع يقول: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة: كل ما نهى اللهُ تعالى عنه فهو من الكبائر. وقال هـو وغـيره: كـل مـا توعَّد الله تعالى عليه بالنار فهو مِن الكبائر. وقال بعض السلف: كلُّ ما أوجـبَ الحـدَّ في الدنيا فهو كبيرة. والصغائرُ عندهم من اللَّمَم وهـو مـا لا حـدَّ فيـه، ومـا لم يتهـدد بالنـار عليه، فقد روي هذا عـن أبي هريـرة وغـيره. وكـان عبـد الـرزاق يقـول: الكبـائر إحـدى عشرة. وهذا أكثر مـا قيـل في جملـة عـددها مجمـلاً، وقيـل: إنهـا مبهمـة لا يُعـرف حقيقـةُ عددها كإبهـام ليلـةِ القـدر وسـاعة يـوم الجمعـة والـصلاة الوسـطى ليكـونَ النـاسُ عـلى خوفٍ ورجاءٍ فلا يُقطعونَ بشيء ولا يسكنون إلى شيء، وقد قال ابن مسعود فيهـا قـولاً حسناً مِن طريق الاستنباط، وقد سئل عن الكبائر فقال: اقرأ مـن أول سـورة النـساء إلى رأس ثلاثـين آيـة منهـا عنـد قولـه M b c d e f g h i

)

L m l k j النساء: 31، فكل ما نهى الله تعالى عنه مِن أولِ السورة إلى ها هنا فهو من الكبائر، فأشبه هذا استدلالَ قول ابن عباس في استنباطِ ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين، أنه عدّ كلماتِ سورة القدر حتى انتهى إلى قوله: ( هي ) فكان سبعاً وعشرين كلمة، والله أعلم بحقيقة هذين القولين.

والذي عندي في جملة ذلك مجتمعاً من المتفرق سبع عشرة، تفصيلها:

أربعة من أعمال القلوب وهنّ: الشرك بالله تعالى والإصرار على معصية الله تعالى والقنوط من رحمة الله تعالى والأمن من مكر الله تعالى.

وأربعة في اللسان وهنّ شهادة الزور وقذف المحصن وهو الحرّ البالغ المسلم واليمين الغموس، وهي التي تُبطل بها حقّاً وتحقُّ بها باطلاً، وقيل: هي التي يقطع بها مال مسلم ظلماً ولو سواكاً من أراك، وسميت غموساً لأنها تغمسُه في غضبِ الله تعالى، وقيل: لأنها تغمسُ صاحبَها في النار، والسحر وهو ما كان من كلام أو فعل يقلِب الأعيان أو يغيِّر الإنسان وينقل المعاني عن موضوعات خلقِها، والسحرة هم النفاثات في العُقد الذين أمر اللهُ تعالى بالاستعاذة منهم.

وثلاثة في البطن وهي: شرب الخمر، والسكر من الأشربة، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم.

واثنتان في الفرج: وهما الزنا، وأن يعمل عملَ قومِ لوط في الأدبار.

واثنتان في اليدين وهما: القتل والسرقة.

وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنين، غير متحرِّف إلى الإمام، ولا متحيِّزاً إلى فئة، ولا معتقد الكرَّة.

وواحدة في جميع الجسد هي: عقوق الوالدين، وتفسير العقوق جملة: أن يُقسِما عليه في حق فلا يبرّ قسمُهما، وأن يسألاه في حاجة فلا يعطيهما، وأن يأمناه فيخونُهما، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعِمهما، وأن يستبّاه فيضربهما، وذكر وهب بن منبه اليماني: أصل البرِّ

بالوالدين في التوراة أن تقيَ مالَهما بمالك وتؤخِّر مالَهما وتُطعِمهما من مالك، وأصل العقوق أن تقيَ مالَك بمالِهما وتوفِّر مالَك وتأكل مالهما، وفي حديث أبي هريرة: الصلاةُ إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاثة: إشراكٌ بالله، وتركُ السنّة، ونكثُ الصفقة، أن تُبايعَ الرجلَ ثم تخرج عليه بالسيف تقاتله.

وقد روينا عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: **قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِن الكبائر استطالةُ الرجل في عرضِ أخيه المسلم بغير حق، ومن الكبائر السبَّتان بالسبَّة.** وأما عبادة بن الصامت وأبو سعد الخدري وغيرهما من الصحابة فكانوا يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينِكم من الشعر، كنا نعدُّها على عهد رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكبائر، وهي في بعض الألفاظ من الموبقات، وقالت طائفة: كلُّ عَمْدٍ فهو كبيرة. وقال بعض السلف: أربعةُ أشياءَ مبهمةٌ لا يُعلم حقائقُها: الصلاة الوسطى، وليلة القدر، وساعة يوم الجمعة المرجوُّ فيها الإجابة، والكبائر؛ ذلك ليكونَ الناسُ على خوفٍ مِن الوعيد في الإتقاء، وعلى رجاءٍ من الوعود في الابتغاء، لئلا يُقطَعوا بشيء، ولا يسكُنوا إلى شيء، ولله عاقبةُ الأمور.

فالذي ذكرناه من الخصائل هو مِن أوسطِ الأقوال وأعدلِها، وهو ما اتفقوا عليه، وكثُرت الأخبار فيه، فهذه الكبائرُ الموبقات التي مَن اجتنَبها كُفِّرت عنه السيِّئات، وثبتَت له النوافل من الفرائض الخمس التي هي أبنيةُ الإسلام، وذلك أنَّ دعائمَ الإسلام وهذه الكبائر قرينان يعتَلِجان ويتقاومان في العِظَمْ والمعنى بالتَّضاد، فالكبائر كبُرت فكفَّر اجتنابُها ما دونَها من الصغائر، والفرائض الخمس التي هي أبنيةُ الإسلام إذا تُمِّمت كفَّرت ما بعدها من السيّئات، وثبتَ للعبد نوافلُه، وتُبدَّل سيِّئاتُه حسنات فيكون له فضلٌ عظيمٌ يُرجى له الجنة ومنازل العاملين وهو السابق بالخيرات. **قال الله تعالى** M b c d e f g h i j k

)

F E D C B M النساء: 31 وقال من بعد الكبائر M L m I

الفرقان: 70، وقال رسولُ الله L M L K J I H G

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصلواتُ الخمس كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنِبتِ الكبائر، فالفرائضُ الأربع التي هي أبنيةُ الإسلام منوطةٌ بالصلواتِ الخمس، لا تصحُّ إلا بها كالشيء الواحد بمنزلة الأربع، فالصلواتُ مرتبطةٌ بالشهادتين، إن ترك خصلةً منها كان كتركِ الخمسِ لأنها أسُّ الإسلام وأبنيةُ الإيمان، واجتنابُ الكبائر منوطٌ بالشهادتين لا يقع جميعُ ذلك إلا بهما، فإذا انتُهكتِ الكبائر أحبطَت الأعمالُ الفرائضَ الخمس، أحبطت ما بينها من السيِّئات إلا الكبائر، فإنها كبُرت فلا تكفِّرها، فلا يبقى للعبدِ يومَ القيامة مع ارتكابِ الكبائر مِن الأعمال إلا الفرائض الخمس، وقد أكلَ سائرَ نوافلِه ارتكابُ الكبائر، فيُخاف عليه النارُ ومنازلُ المسرفين، وهذا هو ظالمٌ لنفسه، وهو الذي حذر اللهُ تعالى المؤمنين عنه قال: M P Q R S T U V W X

محمد: 33. ومنه قولُه تعالى: M k l m n o p L Y

البقرة: 81 قيل: هي الكبائر أحاطت بجميعِ حسناتِه فمحقَتها، وعلى هذا اختيارنا هذا الحرف من مقرانا، وعلى الوجه الآخر وأحاطت به خطيئتُه هي الشركُ الذي خُتِم له به فلم ينفعُه عملٌ كان قبلَه. فإن قصَّر في الفرائض الخمس التي هي مباني الإسلام إلا أنه مجتنبُ الكبائر كُفِّرت عنه سيِّئاتُه كلُّها، وتُمِّمت فرائضُه بسائر نوافله، لأنها ثابتةٌ له بعد أن يحصل له صحةُ التوحيد ويسلم مِن كبائر البِدع التي تنقُل عن الملة؛ وهذا ممن استوت حسناتُه وسيئاتُه فيطول وقوفُه للحساب ويشاهِد الزلازلَ والأهوالَ ليكون ذلك رجحانَ حسناته ويُجعل من أصحاب الأعراف على أعراف السور وهي شرفه التي بين الجنة والنار، وهو الحجابُ الذي بين أهلِ النار وأهل الجنة إلى أن يتفضَّلَ اللهُ تعالى عليه بفضلِ رحمته، فإن سمحَ له مولاه فعفَا عنه سقطَ عنه هذا كلُّه وأُدخِل

الجنةَ في أصحاب اليمين؛ وهذا هو المقتصدُ المتوسطُ بين الظالمِ لنفسِه والسابقِ إلى ربِّه، فإن لم يكن له نوافلُ مع نقصانِ فرائضِه لم يبقَ له مِن أعماله إلا اجتناب الكبائر فيُوزن ما بقي مِن عملِه وهو اجتنابُه الكبائر بفرائضِه النواقص، فإن رجح اجتنابُ الكبائر مثقال ذرة أو فضُلت له حسنة واحدة، ضاعفَها الله تعالى بالمزيد وتجاوز عن سيِّئاته في أصحاب الجنة، ولم تكن له مقاماتُ المقربين ولا درجاتُ السابقين وهو ممن قال الله سبحانه وتعالى: R Q P O N M L K J I H G F M النساء: 40، يعني الجنة. وإن خفَّ إضاعته الفرائض لسنّته كان من الموقَفين للحساب الطويل، واحتاج إلى شفاعةِ الشافعين، فإن كان فرائضُه الخمسُ ناقصةً، وكان مرتكباً للكبائر فهو من الهالكين، لأنه ممَّن خفَّت موازينُه من المؤمنين، وهذا من المسرفين وهم أصحابُ النار، فيدخل النارَ لنقصِ إسلامِه ولوفورِ سيِّئاته عليه إذ لم تمحُها حسناتُه ولتطولَ نوافلُه بانتهاكِه الكبائر، ولأن هذا نقص مِن مثقالِ دينار إلا أنه لا يكون من المخلَّدين لصحةِ توحيده، وعلى أنه أولُ مَن يخرجُ مِن النار مَن كان في قلبِه مثقالُ دينارٍ مِن إيمان، فهو في أولِ طبقةٍ يخرج هذا إلى زِنَةِ شعيرةٍ إلى ذرَّةٍ مِن إيمان؛ وهؤلاء آخرُ الطبقاتِ خروجًا إلى أن يبدوَ لِبعضِهم مِن الله تعالى ما لا يحتسبُه ويظهرُ له غدًا ما لا يعلمُه، فيُعفى عن البعض، ولا يُجعل ممن حقَّ عليه الوعيد لما سبق له مِن الكلمة الحسنى، ويتجاوز عن سيّئاتِهم في أصحاب الجنة.

وقد جاء في الخبر: يؤتى بالرجل من هذه الأمة فيُسدُّ به ركنٌ مِن أركانِ جهنم، وقد جاء في الخبر: أنَّ العبدَ ليُوقَف بين يدي الله عزّ وجلّ، وله من الحسنات أمثالُ الجبال، لو سلِمَت له لكان مِن أهلِ الجنة، فيقوم أصحابُ المظالم، فيوجد قد سبَّ عرضَ هذا، وأكل مالَ هذا، وضرب هذا، فيقصُّ مِن حسناتِه حتى لا تبقى له حسنة، فيقول الملائكة: يا ربَّنا قد فنِيت حسناتُه، وبقيَ طالبُون كثير، فيقال: ألقوا مِن سيِّئاتِهم على

)

سيّئاته وصكُّوا له صكًّا إلى النار، وقد جاء في العلم أنَّ آخر مَن يبقى في جهنم من الموحِّدين سبعةُ آلاف سنة.

وروينا عن أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة: وفيه شدة، وقال: والله لا يخرجُ عبدٌ مِن النارِ بعد أن دخلَها حتى يقيمَ فيها سبعة آلاف سنة، وهذا والله أعلم آخرُ مَن يخرج مِن النار لأنهم يخرجون زُمراً متفاوتون مِن اليوم والجمعة والشهر والسنة إلى ستة آلاف سنة، فأكثرهم إيماناً أقلُّهم مقاماً، وأقلُّهم مكثاً أولُهم خروجاً، أما أولُ زمرة تخرج: مَن في قلبِه مثقالٌ من الإيمان فهذا أقلهم لبثًا وأسرعهم خروجًا إلى شعيرة إلى ذرة؛ فهؤلاء أقلُّهم إيماناً وأنقصهم توحيداً وأعظمُهم جُرماً وأشدُّهم على الله عُتِيّاً وهم أكثرُهم مقاماً. وقد اشتهر خبرُ مَن يخرج من النار بعد ألف عام ينادي: ياحنّان يا منّان، فقال الحسن لما روى هذا الحديث يا ليتني كنتُ ذلك الرجل، لشدةِ خوفِه، خاف أن يدخلَها ثم عظُم خوفُه فخاف أن لا يخرجَ منها فتمنَّى أن يخرجَ منها بعد ألف عام. وقد جاء في الخبر: آخرُ مَن يخرجُ من النار وهو أيضاً آخرُ مَن يدخل الجنة، فلعلَّه واللهُ أعلم بعد سبعة آلاف سنة، فيُعطى من الجنة مثلَ الدنيا كلِّها عشرةَ أضعاف، رواه أبو سعيد وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

ومعنى الحكمة في إدخالِ البشر إلى النار على ترتيب الكون أنهم خُلقوا مِن ماء ثم خالطهُ ما امتزج به من الأهواء فلا يُستخرجُ ذلك إلا بالنار، فإنها تُخرِج الماءَ مما مازجَه حتى يخلُص، وأنهم أيضاً خُلِقوا مِن تُرابِ الأرض بمنزلةِ الخشبِ المعوجِّ يُقوَّم بالنار حتى يستقيم، ثم يُقطع عنه النار ويستقيم ذلك فعندها يصلُح لغيرِ النار، وموضع الحكمةِ في تخليدِ الكافرين والشياطين في النار أنَّ أرواحَهم خُلِقت مِن جوهرِ النار فرجعت إلى معدنِها، وهي أيضاً سوداء مظلمة نارية، وهم أيضاً خُلِقوا لها لا يصلحُون لغيرها بمَنزلةِ الحطب والشوك والحراق الذي لا يصلحُ إلا للنار، فتبارك اللهُ تعالى حكمتُه معتدلةٌ في الأشياء وحكمُه غامضٌ فيها، ينظر بعينِ التعديل فيقسم بها المقادير

بمعاني التنقيص والتفضيل، ومجمَل ما ذكرناه أنَّ كلَّ وصفٍ يكونُ للعبدِ من الخير كفر[1] عنه سيِّئاته، فإن نوافلَه ساقطة، وكلُّ وصفٍ يكون له مِن الشرِّ لا يحبط نوافلَه، فإنَّ نوافلَه موفرة ثابتة، ومَن كان عاملاً للحسنات وهو في ذلك يرتكب بعضَ الكبائر فإنَّ أعمالَ برِّه وفضائلَه موقوفةٌ إلى التوبة، فإن تابَ واستقامَ كفَّرت توبتُه ما سلف مِن كبائرِه، وبدَّلت استقامتُه على الطاعة سيِّئاته حسنات، وأكثر ما يُوبِق الناسَ مِن الكبائر المظالم، وأكثر ما يُدخِلهم النارَ ذنوبُ غيرِهم إذا طُرِحت عليهم، وكثيرٌ يدخلون الجنةَ بحسناتِ غيرِهم إذا طُرِحت عليهم لأنها صحيحةٌ ثابتة، وقد تبطلُ حسناتُهم لدخول الآفاتِ عليها، بلغَني عن أبي عبد الله بن الجلاء أنَّ بعضَ إخوانه اغتابَه، ثم أرسل إليه ليستحلَّه فقال: لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنةٌ أفضل من حسناته، أريد أن أزيِّنَ صحيفتي بها، وفي الحديث: ذنب يُغفر وذنب لا يُترك؛ فالذنب الذي يُغفر ظلمُك نفسك، والذنب الذي لا يُترك مظالم العباد؛ والتوبة طريقُ الكل، والرحمةُ تسعُهم، وباب التوبة مفتوحٌ للكافة إلى طلوع الشمس مِن مغربِها، وكلُّ عبدٍ توبتُه متقبَّلةٌ ما لم تبلُغِ الروحُ الحلقوم، ولم يُعاينِ الملائكة، فإذا بلغتِ الروحُ التراقي، وعاينَت الأملاك غُلق عليه بابُ التوبة، ومات على الإصرار. ( وقيل: مَن راق؟ ) أي مَن يرقى بروحه ملائكةُ الرحمة أم ملائكة العذاب؟ ( وظنَّ أنه الفراق ) أيقنَ أنه قد فارقَ الدنيا بمعاينةِ الآخرة وفارق الناسَ والأهلَ بمعاينةِ الملائكة، فإن مات عن غير توبة كان ممن قال الله عزّ وجلّ: M ^ _ ` a b c d e f g i j k l

m L سبأ: 54 قيل: التوبة كما فُعِل بأشياعهم من قبل.

[1] ) وفي نسخة يكفر

)

ولما قال تعالى: M ` a b c d e f g
h i j k l m L النساء: 18 وحضورُ الموت يكون عند معاينةِ ملَك الموت إذا خرجت الروح من جميع الجسم فلم يبقَ إلا ما بين القلب والعينين، فهو الوقتُ الذي قال الله عزّ وجل: M 7 8 9 : ; < = L **الفرقان**: 22 وهو الذي خُوِّف منه في قوله تعالى: M ! " # $ %
& L الأنعام: 158 يعني عند الموت؛ وهذا لأهل المعاينة أو يأتي ربك، يعني يوم القيامة؛ وهذا لأهل البرزخ M 0 1 2 3 4 L وهو اليأس الذي يقع عنده من الدنيا؛ اليأسُ من طلوع الشمس مِن مغربِها وهو آخر التوبة ويؤمِن معه كلُّ كافر، **فقال سبحانه**: M 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = L
**الأنعام**: 158 **أي من قبل المعاينة**: > ? @ A B **قيل التوبة، وهو الوقت الذي قال الله تعالى**: M ¯ ° ± L **غافر**: 84 **يعني كشف الغطاء قالوا**: ³
´ µ ¶ ¸ ¹ بِهِۦ » ¼ ½ ¾ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ ﴾ يعني طريقته وشأنه الذي مضى في الخلق لا تبديل له ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، وحكمُ العباد كلهم في المعاد إلى الله عزّ وجلّ إن عذَّبهم فبما اكتسبوا، ويعفو عن كثير، وإن شاء أن يغفرَ لهم وهو الغفور الرحيم.

وقد يتفاوتُ الناسُ في جميع ما ذكرناه مِن أداء الفرائض ومن ارتكاب المعاصي والعرف، والتخلُّق بأخلاق النفس مِن عادات أبناء الدنيا وعُرف معاشرتهم فيما بينهم؛ فإنّ ذلك حالُ الغافلين ومقامُ الجاهلين غير محمود العاقبة، ولا مغبوط الخاتمة، ولا يترك العمل الصالح أيضاً خشيةَ دخول الآفة، ولا يدعه إن كان داخلاً فيه لما يعتريه فيه؛ ذلك بُغيةُ عدوِّه منه لكن يكون على نيته الأولى من جهة القصد، فإن دخلت عليه

علّةٌ وضع عليها دواءَها فعمل في نفيها وإزالتها وثبَت على حُسنِ نيته وصالحِ معاملته، ولا يدع عملاً لأجل الخلق حياءَ منهم وكراهةً واعتقادهم فضله، لأن العملَ لأجل الناس شرك، وتركَه لأجلهم رياء، وترك العمل لأجل دخول الآفة فيه جهل، وتركه عند دخول العلَّة عليه ضعف ووهن، ومن دخل في العمل لله تعالى وخرج منه لله تعالى لم يضرّه ما كان بين ذلك بعد أن ينفيه ولا يساكنه، وقد يضرُّه ما يكون بعد ذلك: مثل إن كان سرّاً فأظهره بعد زمان فصار علانية فنقل من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية، ومثل أن يتظاهر به ويفتخر ويدل به ويتكبر فيُحبط ذلك عملَه لأنه قد أفسده، والله لا يُصلح عملَ المفسدين، ومَن دخل في العمل لله تعالى ودخل عليه في وسط العمل عِلَّةٌ فخرج مِن العمل بها بطلَ عملُه، ومَن دخل في العملِ بآفة وخرج منه بصحة سلِم له عملُه وجُبِر بآخره أوّلُه، وأفضل الأعمال ما دخل في أوّله لله تعالى وخرج منه بالله تعالى، ولما تطرقه فيما بينهما آفة فيكون الله تعالى هو الأول فالآخر معه وعنده، ثم يظهره بعد ذلك ولا يتظاهر به، وأفضلُ النيات أن لا تريدَ بعملك إلا وجهَ الله تعالى وحده تعظيمًا لحق الربوبية وإلزامًا للنفس وصفَ العبودية، فإن لم يكن هذا المقام عن مشاهدةِ وجهِ ذي الجلال والإكرام فمشاهدةُ ما رغَّب فيه وشوَّق إليه من الآخرة عن مقام الرجاء، ولا ينبغي للعبد أن يدخلَ في شيء حتى يعلمَ علمَه فيكون داخلاً في علمٍ يعلمُ مثله، لأن لله سبحانه وتعالى في كل شيء حكمًا، فما علِم من ذلك حمد الله تعالى عليه وعملَه، وما جهل سأل عنه مَن هو أعلم به، وما أشكل عليه أمسك عنه حتى يستبينَ له وجهُه فيقدم عليه أو يتركه، وليكن ما تحرك فيه أو سكن عنه أو توقف عن الإقدام عليه ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى تقرباً إليه لأجل الله تعالى، فهذا أعلى النيات وهو غاية الإخلاص.

ومن أراد بأعماله ما عند الله تعالى من ثواب الآخرة مِن حظوظ نفسه ومعاني شهواته ولذَّته مِن النعيم في الجنان، واتخاذ الحور الحسان، مما وصف اللهُ تعالى وندب، لم يقدح

)

ذلك في إخلاصِه ولم يغيِّر صحةَ نيتِه مِن قبل أنّ اللهَ تعالى مدحه ورغَّب فيه ووصفه، وكان ذلك مزيد مثله، إلا أنَّ هذا نقصٌ في مقام المحبين، وعيبٌ عندهم كعيبِ مَن عمل لعاجلِ حظِّه من دنياه، وهو شركٌ في إخلاص الموحدين الذي اختصوا بالعبودية، فعتقوا من أسر الهوى بالحرية، فلم يسترقّهم سوى الوحدانية لما شهدوا مِن خالصِ الربوبية، وإخلاصُ العبودية للربوبية أشدُّ مِن إخلاص المعاملة ضرورة، إلا أنَّ مَن رُزق المقام منها دخل بحقيقةٍ لإخلاصِ المعاملة ضرورة، فلا ينقِّيه ولا يصفِّيه عملٌ ولا مجاهدة، فكانوا مخلصين؛ وهذا مقامُ المحبين، وإنما أتعبَ المريدين بالتنقية والتصفية للمعاملة لما بقي عليهم من الشرك الخفي والشهوة الخفية، كما أتعبَ خُدامَ الدنيا بالجمع لها لما استرقَّهم من الهوى، فأما الأحرار فهم مِن خدمة الخلق برآء؛ وهذا يُذهب الإخلاصَ، ويُفسد النيةَ ويدخل الانتقاص، وما تلف له من شيء أو ظلم من حقه فلينوِ بذلك الذخرَ عند الله تعالى، وليجعله في سبيل الله بحُسنِ ظنِّه بالله تعالى وصدقِ يقينِه فإن له مِن ذلك ما نوى.

حدثونا عن رجل رُؤي بعد وفاته فسُئل كيف رأيت أعمالك؟ فقال: كلُّ شيء عملتُه لله تعالى وجدتُه، حتى حبة رمان التقطتُها من طريق، وحتى هرة ماتت لنا، رأيت ذلك كلَّه في كفَّة الحسنات، قال: وكان في قلنسوتي خيطٌ مِن حريرٍ فرأيتُه في كفَّة السيِّئات، قال: وكان قد نفق لي حمار قيمتهُ مائة دينار فما رأيت له ثواباً، فقلت: موت سنّور في الحسنات، وهذا حمارٌ قيمتُه مائة دينار ولا أدري له ثواباً؟ فقيل: إنه وجّه حيث بعثتَ به، لأنك قلتَ لما قيل لك مات الحمار فقلت: في لعنة الله تعالى، أما بطل أجرُك؟ ولو قلتَ: في سبيل الله لوجدتَه في حسناتك.

وفي رواية أخرى قال: وتصدقت يوماً بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إليَّ فوجدته لا علي ولا لي، قال سفيان: وقد رووا هذا ما أحسن حاله حيث وجدها لا له ولا عليه قد أحسن إليه، ومن أوذي أو اغتيب فليحتسب عِرضَه عند الله تعالى، فلعل ذلك

يكون سبباً لنجاته، فقد روي أنَّ العبدَ ليُحاسبُ على أعماله كلِّها فتبطل بدخول الآفات فيها حتى يستوجب النار، ثم يُنشر له أعمالٌ من الحسنات لم يكن عملَها فيستوجب به الجنة، فيعجب من ذلك فيقول: يارب هذه أعمالٌ ما عملتُها؟ فيُقال: هي أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك جعلتُ حسناتِهم لك، ولا تحقرنَّ شيئًا من الأعمال وإن قلَّ فتُخلِّيه من النية أو تصغِّره، فربما كان هلاكُه وعطبُه فيه وهو لا يعلم. وقد روى ابن المبارك عن الحسن: أنَّ الرجلَ ليتعلقُ بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله تعالى: فيقول: والله ما أعرفك، فيقول: بلى أنت أخذتَ مِن حائطي تبنة، وأنَّ الرجل ليتعلقُ بالرجل يوم القيامة فيقول: هذا أخذ من ثوبي زبيرة.

ومات حمَّادُ بن أبي سليمان وكان أحدَ علماء أهلِ الكوفة، فقيل للثوري: ألا تشهد جنازتَه؟ فقال: لو كانت لي نية لفعلت. ومات الحسن البصري فلم يحضر ابن سيرين جنازتَه فسئل عن ذلك فقال: لم يكن لي نية. وقد كان العلماء إذا سُئلوا عن عمل شيء أو سعيٍ فيه يقولون: إن رزقنا اللهُ نيةً فعلنا ذلك، وقال يحيى بن كثير: حسنُ النية في العمل أبلغُ من العمل. وقال بعض السلف: كانوا يستحبون أن يكون لهم في كل شيء نية. وقال الفضيل بن عياض: لا تتحدَّث إلا بنية. وكان بعضهم يقول: الخوفُ على فساد النيةِ وتغيُّرها أشدُّ مِن تركِ الأعمال. وقال الثوري: مَن دعا رجلاً إلى طعامه وليس له نيةٌ في أن يأكلَ، فإن أجابه فأكلَ فعليه وِزران، وإن لم يجبه فعليه وِزرٌ واحد.. فصيَّر عليه وِزرَين مع أكلِ طعامِه بغيرِ نية، لتعرُّضِه للمَقت وحملِه أخاه على ما يكره، إذ لو علِم لَما أجابه، فمَن أفهمه الله تعالى إخلاصَ النية وزادَه معرفةَ الإخلاص أخرجَه ذلك إلى الهربِ من الناس ليخلُص له معاملتُه لأنه ينظرُ بعينِ اليقين، وإذا لا ينفعه شيء إلا شيء بينه وبين الله عزّ وجلّ لا شِرك فيه لسواه؛ وهذا المعنى هو الذي أخرج طائفةَ الأبدال إلى الكهوف تخلِّيًا من أبناء الدنيا لخلاصِ أعمالهم إلى النظر إليهم، فهم وإن فارقُوا

)

فضائلَ الأعمال من صلاة الجماعة وغيرها فقد تقرَّر عندهم أنَّ اجتنابَ معصيةٍ واحدةٍ خيرٌ مِن عملِ سبعين طاعة، فلذلك فارقُوا فضولَ النوافلِ خشيةَ دخولِ معصيةٍ واحدةٍ عليهم، والجاهل بالله عزَّ وجلّ يعمل في طلب الفضائل ولا يبالي بيسير الذنوب، وفيها بُعدٌ مِن الله تعالى، وليس ذلك طريق المقربين، وقد تختلف النياتُ لاختلافِ المقاصد فيصير ما كان بُعداً قربًا بِحُسنِ النية، وما كان حسنًا سيئًا لسوء النية به، من ذلك أنَّ داودَ المحبر لما صنف كتاب العمل جاء أحمد بن حنبل فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صفحًا ثم ردَّه إليه فقال: ما لك؟ قال فيه أسانيد ضعفاء فقال له داود: أنا لم أخرجه على أسانيد فانظر فيه بعين الخبر، إنما نظرتُ بعين العمل فانتفعتُ به، قال أحمد: ردَّه عليّ حتى أنظرَ فيه بالعين التي نظرتَ بها، فردَّه عليه فمكث الكتابُ عنده طويلاً حتى اقتضاه إياه ابن المحبر، ثم رده عليه وقال: جزاك الله خيرًا، قد انتفعتُ به منفعةً بيِّنة. وقال الحسن: النيةُ أبلغُ من العمل، وقال: ابن آدم لا يهمُّ بخيرٍ إلا ثارَ في قلبه منه نوران: فإن كانت الأولى لله عزّ وجلّ فلا تضرّه الآخرة؛ يعني إن كان عنده الإخلاص في الخير في الهمة الأولى فلا تضرّه الوسوسةُ التي تخالجُه بعد ذلك فإنها ضعيفةٌ لا تحُل قوةَ العقد ولا تحلُّ محكَم مبرَمه، وقال يوسف بن أسباط: تخليصُ النية مِن فسادها أشدُّ على العاملين مِن طول الاجتهاد.

وحدثونا عن بعض الصوفية قال: كنت قائمًا مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضَه بعد العصر من يوم عرفة، فمرَّ به بعضُ إخوانه مِن الأبدالِ فسارَّه بشيء، فقال أبو عبيد: لا، فمرَّ كالسحاب يمسح الأرضَ حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أنْ أحجَّ معه فقلت لا، فقال: ألا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية، وقد نويت أن أتمِّم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججتُ معه لأجله أتعرض لمقتِ الله تعالى، لأني أُدخِل في عمل الله تعالى شيئًا غيرَه فيكون هذا عندي أعظمَ مِن سبعين حجة، ومن كان له في مباح نية ولم تكن له نية في فضيلة فالأفضل هو المباح،

حينئذ وقد انتقل المعنى فصار المباحُ هو الفضيلة وصارت الفضيلةُ هي النقيصة لعدمِ النية فيها، وهذا لا يعلمُه إلا العلماء بباطنِ العلم وهو مِن غوامض التصريف: مثل أن يكون رجل قد ظلم فله أن ينتصر وإن عفا كان أفضل إلا أنه له نية في الانتصار وليس له نية في العفو، فالانتصار هو الأفضل، ومثل أن تكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليتقوى بها على الطاعة، ويُريحَ بها نفسَه لوقتٍ آخر، وليس له في الصوم ولا في القيام نية، فقد صار الأكلُ والنومُ حينئذٍ هو الأفضل، وقد كان أبو الدرداء يقول: إني لأستجمُّ نفسي ببعض اللهو ليكونَ ذلك عونًا لي على الحق. وكلُّ عملٍ مباحٍ للعبدِ فيه نيةٌ فهو مأجورٌ عليه، وكلُّ عملٍ فاضلٍ لا نيةَ للعبدِ فيه فأحسنُ حالِه السلامةُ منه، لا له ولا عليه، وربما كان مأزورًا فيه إذا دخلَت عليه نيةُ دنيا، وكلُّ عملٍ مباحٍ أو فضلٍ ليس للعبدِ فيه نيةٌ فهو عملٌ لا شيءَ له فيه، ولكنه يُسألُ عن فراغِ وقتِه، وكلُّ عملٍ فاضلٍ للعبدِ فيه نية؛ فالعملُ باطل ونيتُه هوى، وإنما وجد النية فيه لقصور واختفاء لشهرته، فإن أراد به وجهَ الله تعالى سلِم من عاقبتِه ولا فضيلةَ له به، وإن كان قد خفيَ عليه الهوى أو دقَّ عليه لطيفُ حبِّ الدنيا لجهلِه بالعلم فهو مأثومٌ فيه لتقصيرِه في طلبِ العلمِ الذي يُعرف به الإخلاص وسكوتِه على الجهل الذي يدخُل منه الانتقاص، ولا عذرَ له في ذلك، وقد جاء في الخبر: أنّ الله تعالى لا يعذر على الجهل، ولا يحِلّ للجاهل أن يسكتَ على جهلِه ولا للعالم أن يسكتَ عن علمِه، وقد قال الله سبحانه تعالى: M * + , - . / 0 L النحل: 43.

وقد كان سهلٌ رحمه الله تعالى سئل: ما عُصي اللهُ تعالى بمعصيةٍ أعظم من الجهل؟ قال: نعم، قيل: ما هو؟ قال: الجهل بالجهل، يعني أن يكونَ العبدُ جاهلاً وهو لا يعلم أنه جاهل، أو يحسِب بجهلِه أنه عالم، فيسكت عن جهله ويرضى به فلا يتعلم فيضيِّع فرضَ الفرائض وأصلَ الفرائض كلِّها وهو طلبُ العلم، ولعله أن يفتيَ بالجهلِ أو

)

يتكلم بالشبهات وهو يظن أنه علم؛ فهذا أعظم من سكوته، وكذلك أيضاً ما أُطيع اللهُ تعالى بمثلِ العلم، ومن العلمِ العلمُ بالعلم أي شيء هو؟ وذلك أيضًا واجبٌ مِن حيثُ كان العلم واجباً ليكون على بصيرةٍ مِن تعلُّم العلم، لأنه قد دخل مذهب المتكلمين وأقوال الغالطين من الصوفية والقُصَّاص في شبهات العلم، فصار زخرفًا من القول غروراً يُشبِه العلمَ وليس بعلم، لالتباسِ المعنى بعضه ببعض ولإشكال دقائق العلوم وغرائبه وخفاء السنَّة مِن طريقةِ علماءِ السلف، فاختلط لذلك القُصَّاص والمتكلمون بالعلماء فصار معرفةُ العلم أيُّ شيءٍ هو والعلمُ بالعالم مَن هو علمٌ آخر، وصار العالمُ بالعلم ما هو دون الزخرف من القول كأنه عالم فكان أيضًا العلم بالعلم بمنزلةِ فضل العلم ووَجبِ وجوبه، كما كان الجهلُ بالجهل أعظمَ من الجهل، وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: قسوةُ القلب بالجهل مِن قسوته بالمعاصي لأن الجهلَ ظلمةٌ لا ينفعُ البصرُ فيه شيئاً ، ونورُ العلمِ يهتدي به القاصدُ وإن لم يمشِ. **وقد قيل في تفسير قوله تعالى:** M وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ L **الزمر:** 47 قال: عملوا أعمالاً لجهلِهم ظنُّوا أنها حسنات فوجدوها سيئات وقيل: ذنوبُ غيرهم طُرِحت عليهم فعُذِّبوا بها، ولم يكونوا يحتسبون بها في الدنيا؛ يعني هذا مثلُ ما رُوي في الخبر: أنّ العبدَ ليرى مِن أعماله الحسناتِ مما يرجو به المنازلَ في الجنة فتُلقى عليه سيِّئاتٌ لم يعملها فترجح بحسناته كلِّها فيستوجب النار فيقول: يارب هذه سيِّئاتٌ ما عملتُها هلكتُ بها، فيقول: هذه ذنوب القوم الذين اغتبتَهم وآذيتَهم وظلمتَهم أُلقيت عليك وتخلَّصوا منها، وقد روينا في معناه حديثًا مسندًا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أنَّ العبدَ ليوافي القيامةَ بحسناتٍ أمثالِ الجبال لو خلُصت له دخلَ الجنة، ويأتي قد ظلمَ هذا، وشتمَ هذا، وضرب هذا فيُقتَصُّ لهذا مِن حسناته ولهذا مِن حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة: يا ربنا قد فنِيَت حسناتُه وقد بقيَ طالبون كثير، فيقول الله تعالى: ألقوا عليه من سيّئاتهم ثم صُكُّوا له صكًّا إلى النار.**

وينبغي للعبد إن أراد أن يعملَ عملاً أن يثبت له فيجدد له نية حسنة، ثم يقفُ وقفةً فيتفقد هل يدخل عليه في ذلك آفةٌ واحدة أو أكثر، فيُخرج ما دخل عليه من الآفات بمشاهدة اليقين، ثم يعمل ذلك العمل لله وحده لا شريك له في قصدِه ووجدِه وطلبِه وثوابِه سواه ثم يستقيم على ذلك العمل؛ فإن دخلت عليه آفةٌ في خللِه نفاها حتى يكون قائمًا بشهادته؛ فهذا هو الإخلاص لأن المخلِص يحتاجُ في إخلاصه إلى شيئين ليس أحدُهما أولى به من الآخر: صحة القصد لوجهِ الله تعالى وطلبه ما عنده من الآخرة، ثم إخراج الآفات والحذر على ذلك العمل مِن دخولها عليه إلى فراغِه منه، فبذلك يتمُّ إخلاصُه ويصفو مِن كدرة الهوى ويخلص من الشهوة الخفية فيكون خالصًا من الرياء بالإخلاص، صافيًا من الشهوة، يتفقد دخولَ الآفة، كما روي في الخبر: أخوفُ ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية، قيل: حبّ الدنيا وقيل: العمل؛ لأن يؤجرَ العبدُ ويحمد ثم إذا همَّ العبدُ بعملٍ وقفَ قبله وقفةً فتدبَّره وتفكَّر كم فيه من نية، فربما وجد في العمل الواحد عشرَ نيّات أو خمسًا وما بين ذلك لما يحتمل ذلك العمل مِن وجوه البرِّ ومعاني القربات المندوب إليها، فيكون له بكل نيةٍ عمل، فيُؤجرُ على العمل الواحد عشرةَ أجور، لأنه عشرة أعمال أو خمسة، يكون لكلِّ نيةٍ عمل وبكل عمل أجر؛ وهو من فضائل الأعمال وتضاعيف الحسنات، ولا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى وأحكامه؛ وهو طريقُ الأبدال مِن صالحي أهل الأحوال؛ فبذلك زكَت أعمالُهم وارتفعت مقاماتُهم وكثُرت أجورهم وحسنُت حالاتُهم لا بكثرةِ الأعمال لكن بتحسينِها ووجودِ النيات الكثيرة فيها، وقد جاء في الأثر: مَن عمل عملاً لا يريد به وجهَ الله لم يزل في مقتٍ مِن الله حتى يفرغ. وقد قال بعض الأدباء: مَن لم يشكر لك حسنَ النية فيه لم يشكر لك حسن الصنيعة إليه، وأنشدوا في معناه:

)

لأشـــكرنَّك معروفـــاً هممـــت بـــه ... إن اهتمامَـــك بـــالمعروف معـــروفُ

ولا ألومُـــك إذ لم يمـــضه قـــدر ... فالـــشيء بالقـــدر المكتـــوب مـــصروف

ولو لم يكن في تجديدِ النية الحسنة وتفقُّد الهمةِ العالية إلا أنَّ صاحبَها لا يزال عاملاً من عمالِ الله تعالى بقلبِه وهمِّه، وإن لم يساعده القدرُ على الأفعال بجوارحِه، فيكون أبداً مأجوراً، ولو لم يكن في نيةِ الشرِّ والهمَّة الدنية إلا أنّ صاحبها في بطالةٍ وخسارةٍ وإن لم يساعده المقدور على الأفعال السيئة بجوارحه فيكون خاسرًا أبدًا مأزورًا، ونعوذ بالله من ذلك، وقال بعضهم: إني لأستعد النيةَ في كل شيء قبل الدخول فيه حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء، والنية في هذا التقوِّي على الطاعة والاستعانة به على الخدمة لأنَّ النفسَ مطيَّتُك إن قطعتَ بها قطعَت بك، ونيةُ التطهر مِن التحلي لأجل الدين فكان الناسُ لشدةِ تفقُدهم وحسنِ رعايتِهم صادقين في تركِ كثيرٍ من أعمال البرّ لضعفِ النية ويعملون في أحكام الأصل، قال ابن عيينة: إنما حُرِموا الوصول لتضييعِ الأصول، والنية أصل الأصول لأنها فرض الفرائض، وقال بعضهم: إنما أبعدَ القلبَ مِن الله عزَّ وجلّ مظاهرُ أعمالِ الجوارح بغير مواطأة من القلب بصحةِ القصد؛ يعني بذلك نقصَ الإخلاص بها لأجل الله تبارك وتعالى، فالنكاح مِن معظم شأن الدين فنيَّتُه فيه أن لا يتزوجَ المرأةَ لجمالها ولا لمالها ولا لحُسنها بل لدِينها وعقلِها، ثم ينوي السنَّة لها والعفة والتحصين لهما، ويقنع بالمرأة الدون عن غيرها.

وفي الخبر: مَن نكح لله عزَّ وجلّ وأنكحَ لله تعالى استحقَّ ولايةَ الله تعالى. وأفضلُ الأعمال ما دخل فيه لله عزَّ وجلّ وخرج منه لله، ولم يَعتوِره بعد ذلك علَّة، وأعلى من هذا مَن دخل في الأعمال بالله عزّ وجلّ وثبتَ فيها مع الله، وخرج منها بالله تعالى، وهذا مقام الموحدين مِن الموقنين والعارفين؛ فأصحُّ الأعمال وأخلصُها ما كان اللهُ تبارك وتعالى هو الأوّلُ في أولها، ومع العامل في أوسطِها، وللعبد عنده فيها، والله تعالى هو

الآخر عند آخرها، ثم لا يُظهرها بعد ذلك ولا يتظاهرُ بها ولا يطالع عوضًا عنها مِن الكبير الأكبر، بل ينساها ويشتغل بذكرِ مولاه عنها.

والقعود في المساجد مِن أفضلِ شأنِ الدين وفضائلِ أعمال المتقين، فليكن له فيه عشرُ نيّات، منها: زيارةُ مولاه عزَّ وجلّ في بيته، كما روي: مَن قعد في المسجد فقد زار اللهَ تعالى، وحقٌّ على المزورِ إكرامُ زائره. ومنها انتظارُ الصلاة بعد الصلاة، كما رُوي في معنى قوله تعالى: (ورابِطُوا) وهي المرابطة، ومنها كفُّ سمعِه وبصرِه وترهُّبه في تألُّهه، كما روي: رهبانيةُ أمتي القعود في المساجد. ومنها العكوف، وحقيقتُه عكوف الهمِّ على القلب، وعكوف السرِّ بالتألُّه إلى الله عزّ وجلّ، ومنها ذكرُ الله تعالى واستماعُ ذكرِه والتذكيرِ به، كما روي: مَن غدا إلى المسجد يذكر اللهَ تعالى ويُذكِّر به كان كالمجاهد في سبيل الله، ومثل ذلك إذا جلس ليعلِّمَ علمًا أو يتعلّمَه كان أيضًا كالمجاهد، أو جلس لاستفادةِ أخٍ في الله عزَّ وجلّ أو لتنزُّل رحمةِ الله أو لتركِ الذنوب للخشية والحياء، كما روينا في حديث الحسن بن عليّ عليهما السلام: مَن أدمنَ الاختلافَ إلى المساجد رزقَه الله تعالى إحدى سبع خصال: أخًا مستفادًا في الله تعالى، أو رحمةً مستنزلَة، أو علمًا مستظرَفًا[1]، أو كلمة تدلُّه على هدى أو تصرِفه عن ردى، أو ترك الذنوب خشيةً أو حياءً منه، فإخلاصُ النية هو بخروجِ أضدادِها من القلب وعن القصد والهمة وإن كثُر أعدادُه لتنفردَ النية بقصدِها، ويخلص العملُ بانفرادِ النية لوجه الواحد الفرد المقصود بها.

يروى عن بعضهم قال: غزوتُ في البحر فعرضَ بعضُنا مخلاة فقلت: أشتَريها وانتفعُ بها في غزاتي، فإذا دخلتُ مدينةَ كذا بعتُها فربحتُ فيها، فاشتريتُها فرأيتُ تلك الليلة في النوم كأنَّ شخصين نزلا من السماء فقال أحدُهما لصاحبه: أكتبِ الغزاةَ، فأُملي عليه،

[1] ) وفي نسخة مستطرفاً.

)

أكتب: خرج فلان متنزهًا، وفلان مرائيًا، وفلان تاجرًا ، وفلان في سبيل الله، ثم نظر إليَّ فقال: أكتب: خرج فلان تاجرًا، فقلت: الله الله فيَّ، والله ما خرجت أتَّجرُ ولا معي تجارة أتَّجِر فيها، ما خرجت إلا للغزو، فقال لي: يا شيخ قد اشتريتَ أمس مخلاةً تريد أن تربحَ فيها، فبكيتُ وقلتُ لا تكتبوني تاجرًا فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: أكتب: خرج فلان غازيًا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاةً ليربحَ فيها حتى يحكمَ اللهُ عزّ وجلّ فيه ما يرى.

**فصل:**

ومن المناقصِ المشبِهة للفضائل الملتبِسة على الأفاضل، لشهرةِ فضلِها وروعِة الهموم للدخول فيها، والتصبُّر عليها، وهي منكشفةٌ للعلماء بالله تعالى: ما رُوي أنَّ رجلين تآخيا في الله عزَّ وجلّ بعد رفعِ عيسى بن مريم إلى السماء فترهَّب أحدُهما وهو سرجس، ولزم أخوه الآخرُ الجماعةَ والمساجدَ ومخالطةَ الناس، وكان أعلمَ منه بالله عزَّ وجلّ، وكان يلقى آخاه سرجس فيقول: يا أخي إنَّ هذا الأمر الذي دخلتَ فيه بدعة، وإنّ عليك فيه رعاية لا تقوم بحقِّها، وإنه ليس لله فيه رضا، فلو دخلت معي في الجماعة والألفة كان ذلك لله تعالى رضًا وأصبت السنّة، فكان المترهِّب يُعرِض عنه ولا يعبأ برأيه ويقول له: إنكَ قد ركنتَ إلى الدنيا وأنِستَ بالخلق، فلما أعيَاه قال له: فاجعل فطرَكَ عندي الليلةَ حتى يتبيَّنَ ذلك ففعل فقَدَّم إليه فرخين شواهما وقال له: تعال حتى نجعلَ هذين الفرخين قاضيين بيننا، قال: حتى يدعوَ اللهَ كلُّ واحد منا، فمَن كان سيرتُه وهديُه أحبَّ إلى الله ورسوله يبعث بدعائه هذين الفرخين حتى يطيرا حيَّين، قال: نعم فادعُ أنت، فدعا الراهب فقال: اللهم إنْ كان هذا الأمرُ الذي دخلتُ فيه أريدُ به رضاك أقربَ إلى الحق مما يدعوني إليه أخي هذا فابعث هذين الفرخين إليّ قال: فلم يُجَب، فقال الآخر: اللهم إن كان هذا الأمرُ الذي تمسكتُ به وخالفتُ فيه هذا وأصحابَه أقربَ إلى الحقِّ وأرضاهُما عندك مما يدعوني إليه أخي هذا من الاعتزال والفرقة للجماعة، فابعث

لي هذين الفرخين قال: فصارا حيَّين، فطارا بإذن الله تعالى، فعلم الأخ أنَّ ذلك ليس لله رضا فرجع إلى الجماعة والمساجد.

ومِن التباسِ الفضائل العالية تركُ العبدِ حالَه في مقامه طلبًا للفضيلة ليزدادَ بها قُربًا إلى الله عزَّ وجلّ فينقلب عليه فيهلك، ما أدخل العدو على برصيصا العابد في تعليم الاسم الأعظم وقصته مشهورة، فالعالمُ عند العلماء مَن علمَ خيرَ الخيرين فسبق إليه قبل فوته وعلم شرَّ الخيرين فأعرض عنه لئلا يُشغِله عن الأخير منها، وعلم أيضاً خيرَ الشرَّين ففعله إذا اضطُّر إليه وابتُلي به، وعلم شرَّ الشرَّين فأمعنَ في الهربِ منه واحتجب بحِجابين عنه، وهذا مِن دقائق العلوم.

**فصل**

وقد تلتبسُ النيةُ بالأمنية فتخفى والهمة وبالوسوسة فتشتبه، والنية ما كان يُراد به وجه الله عزَّ وجلّ ويطلب به ما عنده، والأمنية ما تعلق بالخلق وطلب منه عاجل الحظ من الملك الفاني، وقد تلتبسُ الإرادةُ بالمحبة والحاجةُ بالشهوة؛ فالإرادةُ أن يريدَ وقوعَ الأمر وقد لا يحبُّ كونَه أو يريد أيضاً وجودَ ضدِّه، والمحبة ما قهر العقلَ وغلب الوجد وحلَّ في مجامع القلب وكره وجودَ غيرِه ولم يُرِد فقدَه، والحاجة ما اضطُرِرت إليه، ولم يكن منه بدّاً ولا يستغني عنه بغيره، والشهوةُ مزيدُ لذَّة واستدعاءُ فضلِ فاقةٍ واجتلابِ تقدُّمِ عادة.

وقد يختلط الذكرُ بالقلب بالفكر في معاني القرب؛ فالذكرُ ما أظهر النسيّ وكشف الغيّ وأذكر الشكر، والفكر ما صوَّر الأمرَ وأظهرَ الخبر، وقد يلتبسُ الرجاءُ بالمحبة، والهوى بالنية، فالرجاءُ ما طمعتَ فيه بسببٍ ما، والمحبةُ ما تطمَّعتَ ذوقَه ووجدتَه بغير تسبُّب تستخرجه وقد يلتبس ذلَّ القلب بضعفه وموتِه للطمع في الخلق بذل النفس لمشاهدة عز الخالق سبحانه وتعالى، وقد يتداخل ذلُّ الطمع لدناءةِ الهمةِ والنفسِ بذُلِّ العقل

)

للاعتراف بالحق وخضوع العلمِ له، وقد يلتبسُ ذلُّ النفس لغلبةِ الهوى وقهرِه للعقل بذُلِّ القلب لسرعةِ الانقيادِ للعالم المحقّ، وقد يختلط عزةُ القلب بمقلبه بدوام النظر إليه وعزة العقل بعمله الذي كبُر عنده، وقد تلتبس عزةُ النفس بوصفِها المتسلِّط بعزة الإيمان، المعزز بغيبة اليقين؛ فهذه فروقٌ ظاهرةٌ للعارفين وخروقٌ متَّسعةٌ تُرهِب الغافلين.

وقد تلتبسُ العبادةُ بالعادة مثل أن يكونَ للعبدِ نيةٌ في علمٍ أو عملٍ أو صدقةٍ أو نفقةِ الشهر والسنة ثم تعزب نيَّتُه فيبقى على عادته يرُبُّ حالَه الذي قد عُرف به، لا يحبّ أن يخرج مِن عرف الناس فيتعمل لاستقامة الحال على التكلُّف بتلك الأعمال فتذهب النية وتبقى العادة، فيخرج بذلك مِن إرادة الآخرة والسَّعي لها، ويدخل في إرادةِ الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها، وقد يشهد شهادةَ الدنيا مِن طلب الرياسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة في معنى العلوم والأعمال فما طلب مِن أعمال السلف وأُريد به تأديبُ النفس ويعلم به الزهد في الدنيا؛ فهذه طرقات الآخرة، وما كان على ضده فهو طرقات الدنيا؛ إذ هو ضدها، وقالوا: كان الناس إذا علِموا عملوا، وإذا عمِلوا شُغِلوا، وإذا شغلوا هربوا، وقالوا: تفقَّه ثم اعتزل.

وقد يلتبس إظهارُ الأعمال وكشف ما كتم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه، أو لإظهارِ قدرةِ الله عزَّ وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به بفعل مثل ذلك للتزين والفخر أو للمدح به وطلبِ الذكر. وسئل أبو سليمان عن الرجل يخبر بالشيء عن نفسه فقالوا: إذا كان إمامًا يُقتدَى به فنعم. وقال مرة هو أو غيره: يختلف ذلك على قدرِ الإرادة به، إذا أراد التأديبَ للنفس حسُن ذلك فهذا يلتبس بمداخلةِ النفس أو بفنائها بقيُّوميةِ شاهدِ اليقين للربِّ عزّ وجلّ.

**فصل**

تركُ العمل عملٌ كثيرٌ يحتاج التاركُ للنهي أو المكروه فرضًا أو ورعًا إلى نيةٍ حسنةٍ أن يتركَه لله عزَّ وجلّ طلب مأمنه أو رغبة فيما عنده، لا لوجود الخلق، ولا ليُربِّ به حاله أو يقيمَ به عند العبيد جاهَه، لأنَّ تركَ المعصية من أفضل الأعمال فيحتاج إلى أحسن النيات، إذ عليها مِن الله تعالى أجزلُ المثوبات لبلوى النفس بها واضطراب الوصف إليها، وقال بعضهم: مَن أحبَّ أن يَعرفَ ورعَه غيرُ الله تعالى فليس مِن الله في شيء، وروي عن زكريا عليه السلام: أنّ قومًا دخلوا عليه وكان يعمل في حائط القوم بالطين، وكان صانعًا يأكل مِن كدِّ يديه، فقدم إليه عندهم رغيفَيه وجعل يأكل ولم يدعُهم حتى فرغ، فسألوه عن ذلك لعلمِهم بزُهدِه وكرمِه، فقال: إني أعملُ لقومٍ بأجرة، وقرَّبوا إليَّ هذين الرغيفين لأتقوَّى بهما على عملِهم، فلو أكلتُم معي لم يكفِكُم ولم يكفِني وضعفتُ عن عملِهم؛ فهذا ممن ترك فضلاً لفرض، وممن كانت له نيةٌ في الترك، كما تكون له في الفعل. وقال بعضهم: دخلتُ على سفيان بن أبي عاصم وهو يأكل فما كلمني حتى لعقَ أصابعَه، ثم قال: لولا أني أخذتُه بدينٍ لأحببتُ أن تأكلَ منه.

وقد روينا في الخبر: أنَّ أعجميّاً مرَّ بنفرٍ قعودٍ يتكلمون بكلامٍ فيه استهزاءٌ ولهوٌ، فظنَّ أنهم يدعون الله عزَّ وجلّ فقال: مثل ما يقولون بحسنِ نيته، قال: فغفر الله لهم بحسن نيَّتِه. وقال الحسن: مِن علامة المسلم أن لا يبدرَه لسانُه ولا يسبقَه بصرُه، ولا تقصر به نيتُه؛ يعني لا يضعف ولا تقعد به عن المسارعة إلى القربات هي أبد في قوة وزيادة وإن قصُرت أعماله فيها وعجزت قوى جوارحه وقال: المؤمن تبلغ نيتُه وتضعفُ قوتُه، والمنافقُ تضعفُ نيتُه وتبلغ قوَّته، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لكل حقٍّ حقيقة وما بلغَ عبدٌ حقيقةَ الإخلاص حتى لا يحبَّ أن يحمدَ على شيء مِن عملِ الله عزّ وجلّ، وقال الحواريون لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام: ياروحَ الله ما الإخلاص لله عزَّ وجلّ؟ قال: الذي يعمل العملَ لله تعالى لا يحبُّ أن يحمده عليه أحدٌ من الناس، قالوا:

)

فمن الناصحُ لله عزّ وجلّ؟ قال: الذي يبدأ بحقِّ الله تعالى قبلَ حقِّ الناس، وإذا عرض له أمران؛ أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمرِ الله تعالى قبلَ أمرِ الدنيا، فحبُّ المحمدة مِن الناس أصلٌ هو فرعُها، وهو يحبّ أن يُعرفَ مكانُه، ويريدُ الاشتهار، وينوي بقلبِه محبةَ الإعظام له مِن وجوه الأنام، فلا ينفعه مع هذه النية اختفاؤه في الآجام وعملُه غير مقبول، كما روي أنّ عابداً من بني إسرائيل عبدَ اللهَ تعالى في سربٍ أربعين سنة، فكانت الملائكةُ ترفع عملَه في السماء فلا يُقبل، فقالت: ربنا وعزَّتِك ما رفعنا إليك إلا حقّاً فقال عزّ وجلّ: صدقتُم ملائكتي ولكنه يحبُّ أن يُعرفَ مكانُه. فلذلك قال بعض السلف: مَن نجا مِن الكبر والرياء وحبِّ الشهرة فقد سلم، وقال الثوري: ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ مِن نيتي، لأنها تفلتُ عليَّ. يعني تشرد أو تضعف، فتحتاج إلى مداواةٍ لها، كما قال المنصور: المداومةُ على العمل حتى يخلصَ أشدُّ من العمل، وقال الثوري: ما أعتدُّ بما ظهرَ مِن عملي، وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: كونوا بقبولِ العمل أشدَّ اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لا يقلُّ عملٌ مع تقوى وكيف يقلُّ عملٌ يُتقبَّل؟ وقال بعضهم: مَن استوحش مِن الوحدة وأنِس بالجماعة لم يسلم من الرياء، وقال عبد العزيز بن أبي رواد: أدركتُهم يجتهدونَ في العمل الصالح فإذا بلغُوه وقع عليهم الهمُّ أيُتقبَّل منهم أم لا.وقال مالك بن دينار: الخوفُ على العمل أن لا يُتقبَّل أشدُّ من العمل، وقال ابن عجلان: العمل لا يصلح إلا بثلاث: التقوى لله عزَّ وجلّ، والنيةُ الحسنة، والإصابة.

وقد فسَّر الفضيلُ قولَه تعالى:M @ A B C L هود: 7، قال: أخلصَه وأصوبَه قيل: وما ذاك؟ قال: العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وقال التياحي: للعمل أربع خصال لا يتم إلا بهنّ: معرفة الله عزَّ وجلّ، ومعرفة الحق، والإخلاص به، والعمل على السنّة، فأي عمل كان قبل هذه الأربع لا ينفع، فمنهم مَن يكون حسنَ الأداء لفرضِه، كثيرَ الندمِ والإشفاق مِن معاصيه، فيكون هذا أحسن

حالاً، ومنهم مَن يكون سيءَ الأداء، قليلَ الحزن والندم على ذنوبه، فيكون هذا أسوأَ حالاً وليس يجدون في ذلك على قياسٍ واحد، والله يغفرُ لمن يشاء الذنبَ العظيمَ ويعذِّب مَن يشاءُ على الذنب الصغير، لِما سبق لهما في علمه، ولما نفذ لهما من مشيئته وحكمه، وقد يشترك الاثنان في معصية ويتفاوتان في حُكمِ المشيئة ويتوبُ الله على مَن أحبَّ ويتقبلُ ممن يحبّ، والقبول غيرُ العمل، على العبد العمل وإلى المولى القبول، يقبل ممن يحبُّ ويردُّ ما يشاء ممن يشاء، والسابقة غير المعصية؛ السابقة في المشيئة يغفر لمن سبقت له الحسنى جميعَ معاصيه السوأى ويعذِّب مَن حقَّت عليه كلمةُ العذاب ويُحبِط أعمالَه الحسنى، والخلق مردودون إلى السابقة، ومحكومٌ عليهم بعلمِ الله تعالى فيهم، وفي الخبر: هلك المصرّون قدمًا إلى النار؛ والإصرار يكون بمعنى أن يعتقدَ بقلبِه متى قدر على الذنب فعلُه أو لا يعقد الندم عليه ولا التوبة منه ، وأكبرُ الإصرار السعيُ في طلبِ الأوزار، وفي الخبر: سبق المفرِّدون المستهتِرون بذكرِ الله تعالى، وضع الذكرُ أوزارَهم فوردُوا القيامةَ خفافًا. فهؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى من المقرّبين، أخبر رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ لهم أوزارًا وضعتها الأذكار.

**وقال تعالى:** M ¦ § L **الواقعة:** 10 ، هذا ما علِمناه مِن أدلةِ العلوم وتأويل التنزيل، وعفوُ الله تعالى وإرادتُه مِن وراء ذلك كلِّه وعلمِه القديم ولله عاقبة الأمور.

**مسألة محاسبة الكفار**

فأما محاسبة الكفَّار فهذه مسألةٌ اختلف الناسُ فيها، فمنهم مَن ذهب إلى أنهم يحاسَبون، ومنهم مَن أنكر حسابَهم، وقد اختلفت الآثار في ذلك، فقد جاء في بعضِها ما يدلُّ على حسابِهم وبه تعلَّق من قال به، وجاء في كثيرٍ منها ما يدل على أنهم لا يحاسَبون، وبه احتجَّ مَن أنكر حسابَهم، وإنما يرجعُ عند الاختلاف إلى كتاب الله تعالى، ففيه الشفاء

)

وبه الغِنى، فيفصِّل ما أجمل القائلون، ونعدل في القول الشديد فيما تأوَّله المتأولون، فنقول: والله أعلم: إنَّ اللهَ سبحانه ذكر في كتابه آيتين تدلُّ على مسألة الكفَّار عن الشرك الذي أدخلوا في التوحيد، وعن إجابة المرسلين وتكذيبهم، قال الله تعالى: M E F G H I J K L چ القصص: 62 ثم قال في الآية الأخرى: M r s t u v w L القصص: 65 فنقول أنهم على هذا يُسألون عن التوحيد فقط وعن تكذيب المرسلين حسب هاتين الآيتين، وقال في الآيتين الآخرتين: M : ; < = > L القصص: 78 وقال في الأخرى M فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ L الرحمن: 39 ثم قال: M ! " # $ % & L الرحمن: 41 فهذا نصٌّ في تَركِ المسألة على الذنوب والأعمال، فنقول بهاتين الآيتين: إنهم لا يُسألون عن الأعمال، وإنما يُحاسَب على العمل مَن كانت بينه وبينه معاملة، ومَن ثبتت له حسناتٌ يقع بها ترجيحٌ وموازنة.

وقد روينا عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: M وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ L الصافات: 42، قال عن قولِ لا إله إلا الله، وقد رويناه مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهذا على معنى ما ذكرناه أنهم يُسألون عن التوحيد، فالناسُ مِن أهل الجنة والنار يُحشرون يوم القيامة على ستِّ طبقات؛ طائفةٌ تدخل الجنةَ بغير حساب وهم السابقون المقرَّبون، وطائفةٌ تدخل الجنةَ بعد الحسابِ اليسيرِ وهم خصوصُ المؤمنين والصالحين، ومنهم مَن يدخل بعد الحساب الطويل والمناقشة، وهم أصحابُ اليمين وعمومُ المؤمنين.

وكذلك أهل النار ثلاث طبقات: طائفة تدخل النار بغير سؤال ولا حساب، عالمان من عبدةِ الأوثان مِن ولد يافث بن نوح وهم يأجوج ومأجوج خلق خلقوا للنار،

وطائفة تدخل النارَ بعد الحساب الطويل والمناقشة، وهم أهل الكبائر والمنافقون، وطائفة بسؤالٍ وتوقيف من غير محاسبةٍ على الأعمال وهم أمم الأنبياء المرسل إليهم المرسلون لقوله تعالى: M Y Z ] \ L الأعراف: 6.

**وقد روينا في الخبر المشهور: مُن نوقِش الحسابَ عُذِّب، فقيل: يا رسولَ الله أليس اللهُ تعالى يقول:** M P Q R S L؟ فقال ذلك العَرض، ومَن نُوقش الحساب عُذِّب، وقد كان إمامُنا سهلُ بن عبد الله يقول: يُسأل الكفّار عن التوحيد ولا يُسألون عن السنّة، ويسأل المبتدعون عن السنّة، ويُسأل المسلمون عن الأعمال، فأما قوله تعالى: M إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم L الغاشية: 25 - 26 ففيها وجهان: أحد الوجهين أن يكون هذا كلامًا منفصلاً عما قبله يُراد به المسلمون لأنه ذكر خبر الكفَّار فختمه بالعذاب، فقال في أول الكلام: M إِلَّا « ¼ ½ ¾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ L الغاشية: 23 - 24 هذا آخرُ خبرِهم، ثم استأنف مخبرًا عن غيرهم فقال (إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم والوجه الآخر أن يكون قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم أي جزاءهم، فالحساب أيما ذُكر للكفَّار يكون بمعنى المجازاة على أعمالهم السيئة وكذلك قوله تعالى: M T U V W X L النور: 39 يعني جزاءه، إلا أنَّ الفراءَ وغيرَه مِن أهل اللسان خالفونا في هذا فاعتبروه بما بعده فجعلوه دليلاً على المحاسبة قالوا: احتمل أن يكون قوله فوفَّاه حسابَه أن يكونَ جزاءه كما قلنا واحتمل أن يريد محاسبتَه، فلما قيل: **والله سريع الحساب** كشف التنزيلُ التأويل بذلك أنَّ حسابَه يعني محاسبته، وكذلك قال الزجاج في تأويل ما ذكرناه آنفًا من قوله: M : ; < = > L القصص: 78 فقال معناه لا يُسألون لتوجُّه من قبلهم أو ليرجع إليهم مَن علم ذلك وسبقه عليهم، أي قد فرغ الله عزَّ وجلّ من ذلك

)

فأحكمَه بما سبق مِن علمِه، وواطأه مقاتل بن سليمان على هذا التأويل باختلاف معنى بمعنى صنعته التفسير، لأنه لم يكن له في اللغة تمكين، فقال: معنى ذلك: ولا يُسأل هؤلاء المجرمون عن ذنوب السالفين؛ فجعل الهاء والميم على مَن تقدم ذكرُه مِن قارونَ وأصحابِه والقرونِ السالفة، لأنَّ ذكرَهم كان سياقَ هذا الخطاب في قوله تعالى: M )

L 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , + * )

القصص: 78، ثم قال: ولايُسأل عن ذنوبهم؛ يعني هؤلاء المجرمون؛ يعني مشركي هذه الأمة، وقال أيضاً هو وغيره: إنَّ الكفّار سألوا فقالوا: ترى ماذا فعل الله تعالى بالقرون الأولى الذين يقص علينا نبأهم؟ قال: فنزلت هذه الآية، فهي بمنزلة قول فرعون، قال: فما بال القرون الأولى؟ فقال موسى عليه السلام: علمُها عند ربي، إلا أنَّ الله عزّ وجلّ قد قال في ذكر الحساب بمعنى الجزاء عطاءً حسابًا يعني مجازاة، وقيل: كفاية بمعنى كفاهم وأحسبهم ذلك، كما قال تعالى: v w المجادلة: 8، أي كافيهم ذلك.

الفصل الثامن والثلاثون
في الإخلاص وشرح النيّات والأمر بتحسينها في تصريف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها في الأفعال

قال الله الكبير المتعال: M h i j k l m n o L البينة: 5 **وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنّ قلبُ رجلٍ مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، وقال: إنما الأعمال بالنيّات، ولكل امرئ ما نوى**، وقد روينا في الحديث من طريق أهل البيت عليهم السلام: لا يقبل اللهُ تعالى قولاً إلا بعمل ولا قولاً وعملاً إلا بنيَّة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أفضلُ الأعمال أداءُ ما افترض اللهُ تعالى والورع عمّا حرم اللهُ تعالى وصدق النية فيما عند الله عزّ وجلّ.

فينبغي أن يكون للعبدِ في كل شيء نية حتى في مطعمِه ومشربِه وملبسِه ونومِه ونكاحِه؛ فإن ذلك كلَّه مِن أعماله التي يُسأل عنها؛ فإن كانت لله تعالى وفيه كانت في ميزان حسناته، وإن كانت في سبيلِ الهوى ولغيرِ المولى كانت في ميزان سيّئاته، إذ لكلِّ عبدٍ ما نوى، وإن كان ذلك غفلةً وسهواً مِن غير نية ولا عقدِ طوية ولا حِسبة، لم يكن له في ذلك شيء، ولم يجد عملَه في الآخرة شيئًا، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك في الدنيا على مثال الأنعام التي تتصرف عن غير عقول ولا تكليف ولكن بإلهام وتوفيق، وأخاف أن يدخلَ في وصف مَن قال الله تعالى: 8 9 : ; < = > ? @ **الكهف**: 28، أي غفلة وسهوًا، وقيل: تفريطًا وتضييعاً، وقيل: مقدماً إلى الهلاك، فالنيةُ الصالحة هي أولُ العمل الصالح وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء، وإنما يكون للعبد مِن ثواب الأعمال على حسبِ ما يهب اللهُ تعالى له من النيّات، فربما اتفق في العمل الواحد نيّاتٌ كثيرةٌ على مقدارِ ما يحتمل العبدُ من النية، وعلى مقدار

)

علمِ العامل، فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كلَّ حسنة عشر أمثالها، لأنها أعمال تجتمع في عملٍ.

وصورة النية معنيان، أحدهما: صحةُ قصدِ القلب إلى العمل بحُسن التيقُّظ فيه والإخلاص به لوجه الله تعالى ابتغاءَ ما عنده من الأجر، فكل عملٍ كان على عِلمٍ بهذه النية فهو صالح متقبَّل بفضل الله تعالى وبرحمته، لأن صاحبَه قد اتقى الشركَ والجهلَ والهوى، فعملُه مرفوعٌ في الخزائن مدَّخرٌ له الجزاء.

وحقيقةُ الإخلاص سلامتُه من وصفين؛ وهما: الرياء والهوى، ليكون خالصًا كما وصف الله تعالى الخالص مِن اللَّبَن، فكان بذلك تمامُ النعمة علينا، فقال: M = < ? @ A B L **النحل**: 66، فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصًا، ولم تتم النعمةُ به علينا ولم تقبله نفوسُنا، فكذلك معاملتُنا لله عزّ وجلّ إذا شابَها رياءٌ بخلق أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة لم يتم بها الصدق والأدب في المعاملة ولم يقبلها الله تعالى منّا فاعتبروا.

ورويناعن سعيد بن أبي بردة عن كتابِ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري: أنه مَن خلصت نيتُه كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّن للناس بما يعلم اللهُ تعالى منه غير ذلك شانَه الله تعالى، فما ظنك؟ وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا عمر أنَّ الله تعالى عونٌ للعبد بقدرِ النية، فمن تمّت نيتُه تمَّ عونُ الله تعالى إياه، ومَن قصُرت عنه نيتُه قصُر عنه مِن عونِ الله تعالى بقدرِ ذلك، وقد قال الله تعالى في تصديق ذلك: YM Z [ \ ] ^ L النساء: 35، فجعل سببَ التوفيق إرادةَ الإصلاح؛ فذلك هو أولُ التوفيق مِن الموفِّق المصلِح للعامل الصالح. وقال بعض السلف: رأيتُ الخيرَ إنما يجمعه حسنُ النية وكفاك به خيراً وإن لم ينصب، رُبَّ عملٍ صغير تعظِّمه النية، ورُبَّ عملٍ كبير تصغِّره النية، وكتب

بعض الأدباء إلى أخيه: أخلِص النيةَ في أعمالك يكفِك القليلُ من العمل، وقال داود الطائي: مَن أكبر همِّه التقوى لو تعلقت جميعُ جوارحِه بالدنيا لردَّته نيتُه يوماً إلى نية صالحة، فكذلك الجاهل بالله تعالى وأيامِه همُّه الدنيا والهوى، ولو تعلقت جوارحُه بكلِّ أعمال الصالحات لكان مرجوعًا إلى إرادة الدنيا وموافقة الهوى، لأن سرَّها كان همَّةُ النفس لعاجلِ عرضِ الدنيا، وقال محمد بن الحسين: ينبغي للرجل أن تكون نيتُه بين يدي عملِه، وقال أيوب السختياني وغيره: تخلُّص النيّات على العمّال أشدُّ عليهم من جميع الأعمال، وقال الثوري: كانوا يتعلمون النيةَ للعمل كما يتعلمون العلم، وقال بعض العلماء: اطلب النيةَ للعمل قبل العمل، وما دمتَ تنوي الخيرَ فأنت بخير، وقال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمالُ أمرِك: تصبح ولا تهتم لله تعالى بمعصية، وتمسي ولا تهتم لله تعالى بمعصية، وكذلك قال بعض السلف في معناه: إنَّ نعمةَ الله تعالى أكثرُ مِن أن تحصوها، وإنّ ذنوبكم أخفى مِن أن تعلموها ، ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك.

وروينا في الخبر عن بعض المريدين: أنه كان يطوف على العلماء يقول: مَن يدلُّني على عملٍ لا أزال فيه عاملاً لله تعالى، فإني أحبُّ أن لاتجيء عليَّ ساعةٌ من ليلٍ أو نهار إلا وأنا عاملٌ مِن عمال الله تعالى، فقيل له: قد وجدتَ صاحبَك اعملِ الخير ما استطعت، فإذا فتَرتَ أو تركتَه فهِمّ بعمِله، فإن الهامَّ بعملِ الخير كعامله.

وروينا عن عيسى عليه الصلاة والسلام: طوبى لعينٍ نامت ولا تهمُّ بمعصية وانتهت إلى غير إثم. وروينا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَن همَّ بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة، ومَن همَّ بسيّئةٍ ولم يعملها كُتبت له حسنة. وقد جاء في الخبر المشهور: نيةُ المرءِ خيرٌ مِن عملِه.

)

**تفسير قوله نية المرء خير من عمله**

فيه عشرة أوجه؛ قيل: إنَّ النية سرٌّ وأعمال السرِّ تُضاعَف، وقيل: لأنها غيبٌ لا يطلع عليها غيرُ الله تعالى، والظواهر مشتركة، وأيضاً فإن اللهَ عزّ وجل يهبها للعبد خالصةً لا يشوبُها شيءٌ إذا وهبها، ولا يدخل عليها الآفات؛ فهذا عطاءٌ مهيأ وسائرُ الأعمال مدَّخَرٌ له، وأيضاً لأنها مِن شرطِ العمل حتى لا يصحَّ عملٌ إلا بها وهي تصحُّ بمجرَّدِها، وكان عبد الرحيم بن يحيى الأسود يقول: معنى قولِه ( نيةُ المرءِ خيرٌ مِن عملِه ) يعني إخلاصَه في العمل خيرٌ من العمل، قال: فالإخلاصُ بغير عمل خيرٌ مِن عملٍ غير مُخلَص. والنية عنده: هو الإخلاص نفسه، وعند غيره: هو الصدق في الحال باستواء السريرة والعلانية.

وقد قال الجنيد رحمه الله تعالى في الفرق بين الإخلاص والصدق معنى لطيفًا لم يفسره ويحتاج إلى تفسير، حدثنا بعض الأشياخ عنه قال: شهِد جماعةٌ على رجلٍ بشهادة فلم تضرُّه وكانوا مخلصين، ولو كانوا صادقين لعُوقِب؛ يعني أنَّ صدقَهم أن لا يعملوا عملَه أو مثلَ عملِه الذي شهدوا به عليه؛ فهذا صدقُ الحال، وهو حقيقةُ النية وإخلاصُها عند المحققين، وقد قيل في معنى قوله: ( نية المرء خير من عمله ) لأن نيةَ المؤمن دائمةٌ متَّصلة، والأعمالُ منقطعة، وبالنية خُلِّد أهلُ التوحيد في الجنة، وخُلِّد أهل الشرك في النار، ولدوامِ نياتِهم على التوحيد ودوامِ نياتِ الآخرين على الشرك مدةَ الدهر.

فهذه المعاني كلُّها على هذا الوجه الذي يقول فيه: إنَّ معناه أنَّ النيةَ خيرٌ من العمل، وفيه وجه آخر يكون الكلام فيه على التقديم والتأخير أي نيةُ المؤمن هي مِن عملِه خير، كأنه قال: هي بعضُ أعمال الخير، فهذا كقوله تعالى: M " # $ % & ' ) ( * L البقرة: 160، معناه نأتِ منها بخير، وكما قال: Mيَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ

حَفِيٌّ à L الأعراف: 781، معناه: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم، فأخَّر قولَه عنها ومعناه التقديم، فيكون هذا على التأويل أنّ النيةَ مِن أعمال القلوب، وأنها مِن أعمال العبدِ خيرٌ كثير، وهذه الأقوالُ كلُّها صحيحة وهي موجودةٌ في النية ففضَلتِ النيةُ العمل، لأن هذه المعاني مِن صفتِها.

وقال بعض التابعين: قلوبُ الأبرار تغلي بالبرِّ، وقلوبُ الفجّار تغلي بالفجور، والله تعالى مطَّلعٌ على نيَّاتِهم فيثيبُهم بقدرِ ذلك، فانظر ما همُّك وما نيتُك.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى في بعض الكتب أنه قال: ليس كل كلام الحكيم أتقبل، ولكني أنظرُ إلى همِّه وهواه، فمَن كان همُّه وهواه لي جعلتُ صمتَه ذكرًا ونظرَه عبرًا؛ وهذا داخل في عموم الخبر الذي رويناه عن نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إنّ الله تعالى لا ينظرُ إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم إنما ينظر إلى قلوبِكم وأعمالكم**. وسئل سفيانُ الثوري: هل يُؤاخَذ العبدُ بالنية؟ قال: نعم إذا كانت عزماً أُخِذ بها، وفي الخبر: أنَّ العبد ليعملُ أعمالاً حسنةً فتصعد بها الملائكةُ في صحفٍ مختَّمةٍ فتُلقى بين يدي الله تعالى فيقول: ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يُرِد بذلك وجهي، ثم ينادي الملائكة: اكتبوا له كذا واكتبوا له كذا، فيقولون: ربَّنا إنه لم يعمل شيئًا مِن ذلك، فيقال إنه نواه.

وفي حديث أبي كبشة الأنماري: الناس أربعة: رجل آتاه الله عزَّ وجلّ علماً ومالاً فهو يعمل بعلمِه في مالِه، فيقول رجل: لو آتاني الله تعالى ما آتاه لعمِلت كما يعمل؛ فهما في الخير سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علمًا فهو يتخبَّط بجهلِه في مالِه فيقول رجل: لو آتاني اللهُ مثل ما آتاه عملتُ كما يعمل؛ فهما في الوِزرِ سواء، ألا ترى كيف شَركَه بحُسنِ النيةِ في محاسنِ عملِه وشركَه الآخرُ بسوءِ النيةِ بنيتِه في مساوئ عمله؟ وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك قال: **إنّ بالمدينة أقواماً، ما قطعنا وادياً ولا وطِئنا موطئاً يغيظ الكفّار ولا أنفقنا نفقةً ولا نصبنا**

)

**نصبًا ولا أصابتنا مخمصةٌ، إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة، قالوا: وكيف ذلك يارسولَ الله وليسوا معنا؟ قال: حبسهم العذرُ، فشركونا بحسن النية.**

وقال بعض السلف: صلاحُ الأعمال وفسادُها بصلاحِ النيّات وفسادِها، وكان مطرف يقول: صلاحُ عملٍ بصلاحِ قلب، وصلاحُ قلبٍ بصلاحِ نية، ومَن صفا صُفي له، ومن خلَط خُلِّط عليه، وكذلك جاء في الخبر وهو أصل من أصول الدين قولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إنما الأعمال بالنيّات ولكل امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتُه إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ يتزوج بها فهجرته إلى ما هاجر إليه.** فأخبر أن لا عمل إلا بالنيَّة، ثم جعل لكل عبدٍ نيةً ثم ردَّ طالبي الدنيا والأزواج إلى نياتهم، وحكم عليهم بها، وجعلها نصيبَهم من الله تعالى، وفّق ذلك لهم أو لم يوفقه، فبطلت هجرتُهم بفسادِ نيّاتهم وصارت همَّتهُم بدنياهم وهواهم سببَ حرمانِ ثوابِ المخلصين لله بحُسن نياتهم، وطلبِ آخرتِهم؛ وكان ذلك في الآخرة حسرةً عليهم في الدنيا وشينًا لهم.

**وفي حديث ابن مسعود: مَن هاجرَ يبتغي شيئًا فهو له، فهاجر رجلٌ فتزوّج امرأةً منا فكان يسمى مُهاجر أمِّ قيس،** وقال أبو داود: هذا الحديث رُبع العلم، وذلك أنه قال: جمعتُ السننَ الصحاح في حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت أربعة آلاف حديث، ثم قال: قد أمررتُها على أربعة أحاديث، كلُّ حديث ربعُ العلم، قال: وهذا الحديث أوَّلها، وإنما قال ذلك لأنه فرضَ الفروض لا يتمُّ فرضٌ إلا به، وكذلك جاء في الخبر: أنَّ رجلاً قتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ فكان يُدعى قتيل الحمار، وذلك أنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبَه وحمارَه فقُتِل على ذلك فأُضيف إلى نيتِه، وفي حديث أبي عبادة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَن غزا وهو لا ينوي إلا عِقالاً فله ما نوى، وقال: إني استعنتُ رجلاً يغزو معي، فقال: لا حتى تجعل لي جُعلاً: فجعلت له فذكرتُ ذلك للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: ليس له مِن دينه وآخرتِه إلا ما جعلت له.

وروينا في الإسرائيليات أنّ رجلاً مرَّ بكُثبانٍ مِن رمل في مجاعةٍ فقال في نفسِه: لو كان لي هذا الرمل طعامًا لقسَّمته بين الناس، قال: فأوحى الله تعالى إلى نبيِّهم أن قل له: إنّ الله تعالى قد قبل صدقتَك وقد شكر حسنَ نيَّتك وأعطاك ثوابَ ما لو كان طعاماً فتصدقتَ به، وفي أخبار كثيرة: مَن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وفي حديث عبد الله بن عمر: مَن تكن الدنيا نيَّته جعل اللهُ فقرُه بين عينيه وفارقَها أرغبَ ما يكون فيها، ومَن تكنِ الآخرة نيتُه جعل الله غناه في قلبه وجمعَ عليه ضيعتَه وفارقَها أزهدَ ما يكون فيها، وحديث أمِّ سلمة ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشًا يخسف بهم في البيداء فقلت: يا رسولَ الله يكون فيهم المُكره والأجير، فقال: يُحشرون على نياتِهم، وفي حديث عمر مثله: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إنما يقتتلُ المقتتلون على النيَّات، وفي حديث فضالة: مَن مات على مرتبةٍ من المراتب بُعِث عليها، وكذلك قال في الخبر: إذا التقى الصفات نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتِبهم فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل عصبية إلا فلانًا يقولون قتل فلان في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى.

وعن جابر عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُبعثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه، وفي حديث الأحنف بن قيس عن أبي بكرة: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسولَ الله هذا القاتل فما بالُ المقتول؟ قال: لأنه أراد قتلَ صاحبِه.

والنيةُ عند قومٍ الإخلاصُ بعينه، وعند آخرين الصدق، وعند الجملة أنها صحةُ العقد وحسنُ القصد، وهي عند الجماعة من أعمال القلوب مقدَّمةٌ في الأعمال وأوَّل كلِّ عمل، **وقد قال الله تعالى:** Mٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا L **الأحزاب:** 41 قيل في التفسير: خالصاً فسمي الخالص كثيرًا، وهو ما خلصت فيه النية لوجه الله تعالى، ووصف ذكر المنافقين بالقلة فقال: M T U V W XY Z L النساء: 142 يعني غير

)

خالص، وسمِّيت سورة: (قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ) سورة الإخلاص لأنها خالصةٌ في ذكرِ صفاتِ الله تعالى وحده، لا يختلط بذكرِه جنةٌ ولا نارٌ ولا وعدٌ ولا وعيدٌ ولا أمرٌ ولا نهيٌ وكذلك قيل سورة التوحيد إذ لا شريكَ فيها مِن سواه فأولُ سلطانِ العدوِّ على القلب عند فسادِ النية، فإذا تغيَّرت مِن العبد طَمِع فيه فيتسلَّط عليه، وأوَّل ارتدادِ العبدِ عن الاستقامة ضعفُ النية، فإذا ضعُفت النية قويت النفسُ فتمكَّن الهوى، فإذا قوِيت النيةُ صحَّ العزمُ وضعُفت صفاتُ النفس، ولأنه ينتقل العبدُ مِن معصيةٍ إلى معصيةٍ دونَها فيكون تاركًا للأولى بنيَّة التركِ لله تعالى كان أنفعَ له وأحمدَ عاقبةً وأصلحَ لقلبِه وأقربَ إلى توبتِه مِن افتِعال الطاعات مشوبةً بالهوى وفسادِ النيّات، لأنه يكون حينئذ متقلِّبًا[1] في المعاصي بفسادِ نيته، وخالطَ عملاً سيِّئًا بسيءٍ مثلِه، ودرأ بالسيِّئةِ السيِّئةَ قبلَها، وهذا بخلافِ وصفِ الله تعالى مِن قوله: M Z ] \ [ ^ L التوبة: 102 وقوله: M U V W L الرعد: 22، ومخالفٌ لأمرِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: أتبع السيِّئةَ الحسنةَ تمحُها، وفي حديث أبي هريرة: مَن تزوجَ امرأةً على صداقٍ وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق. وفي حديث ابن مسعود ذُكر عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشهداء فقال: إنَّ أكثرَ شهداءِ أمتي لأصحابُ الفرش، ورُبّ قتيلٍ بين الصفين اللهُ أعلمُ بنيَّتِه.

وقال ثابت البناني: نيةُ المؤمن أبلغُ من عمِله، إنَّ المؤمن ينوي أن يصومَ النهارَ ويقومَ الليلَ ويخرجَ مِن ماله فلا تتابعُه نفسُه على ذلك، فنيَّتُه أبلغُ مِن عملِه، وقد ضرب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلَ القلبِ بالملك، والجوارحُ جنودُه، قال: فإذا صلُح القلبُ صلح الجسد، وإذا فسدَ فسد الجسد؛ معناه إذا صلُحت للعبد نيتُه دامت للعبد استقامتُه، وإذا خلُص وصفا مِن شوبِ الكدر والهوى خلُصت الأعمالُ من الرياء

[1] ) وفي نسخة مقلباً.

وصفَت مِن الشهوات والأهواء، وإذا فسدت نيتُه بحبِّ الدنيا فسدتْ أعمالُ الجوارِح بحبِّ المدح والرياء.

وقد حدثونا في الإسرائيليات أنّ عابداً عبد اللهَ تعالى دهرًا طويلاً فجاءه قومٌ فقالوا: إنّ ههنا قوماً يعبدون شجرةً مِن دونِ الله تعالى، فغضب لذلك، فأخذ فأسَه على عاتقِه وقصد الشجرةَ ليقطعَها، فاستقبله إبليسُ في صورةِ شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطعَ هذه الشجرةَ التي تُعبدُ مِن دون الله، قال: وما أنت وذاك؟ تركتَ عبادتَك والاشتغالَ بنفسِك وتفرَّغت لغير ذلك؟ فقال: إنَّ هذا مِن عبادتي، فقال له: إني لا أتركك تقطعها، قال: فقاتلَه فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدرِه، فقال له إبليس: أطلِقني حتى أكلمَك، فقام عنه فقال له إبليس: يا هذا إنَّ الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضْه عليك، أنبيٌّ أنت؟ قال: لا، قال: فلا عليكَ ممَّن كان يعبدُها، فلو اشتغلتَ بعبادتِك وتركتَها فإن لله تعالى في أرضِه أنبياءَ لو شاء بعثَهم إلى أهلها وأمرَهم بقطعِها فقال العابد: لا بدَّ لي من قطعها، قال: فنابذه إبليسُ للقتال فغلبَه العابد، فأخذه وصرعه وقعدَ على صدره، فلما رأى إبليس أنه لا طاقةَ له به ولا سلطانَ له عليه قال: يا هذا هل لك في أمرٍ فصلٍ بيني وبينك، وهو خيرٌ لك وأنفعُ مِن هذا الأمر الذي جئتَ تطلبه قال: وما هو؟ قال: قم عني أخبرك به، فأطلقهُ العابد فقال له إبليس: أنت رجلٌ فقيرٌ لا شيءَ لك، إنما أنت كَلٌّ على الناس (يعولونَك، ولعلك تحبُّ أن تفضُلَ على إخوانك، وتواسي جيرانَك، وتتَّسع في حالك وتستغني عن الناس،)[1] قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر الذي جئتَ فيه ولك عليَّ أن أجعلَ عند رأسِك في كلِّ ليلةٍ دينارين، فإذا أصبحت أخذتَهما فصنعتَ بهما ماشئت، وأنفقتَ على نفسِك وعيالِك وتصدَّقتَ على إخوانك، فيكون لك أفضل من ذلك وأنفع للمسلمين مِن

[1] ) محذوفة في بعض النسخ.

)

قطعِ هذه الشجرة التي يُغرس مكانه، ولا يضرُّهم قطعُها شيئًا ولا ينفعُ إخوانَك المؤمنين قطعُك لها، قال: فتفكر العابد فيما قال له وقال: صدق الشيخ، لست بِنَبِي فيلزمُني قطعُ هذه الشجرة، ولا أمرني اللهُ تعالى أن أقطعَها فأكونَ قد عصيتُ بتركِها، وإنما هو شيء تفضَّلتُ به، وماذا يضرُّ الموحدين مِن بقائها، وهذا الذي ذكره أكثرُ منفعةً لعموم الناس، قال: فعاهده على الوفاءِ بذلك، وحلف له فرجع العابدُ إلى متعبَّدِه فبات ليلتَه فأصبح فإذا ديناران عند رأسه فأخذهما، ثم كذلك الغد، ثم أصبح اليومَ الثالث فلم يرَ شيئًا، ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد، فغضب وأخذ فأسَه على عاتقه وخرج يؤمُّ الشجرةَ ليقطعَها وقال: إن فاتني أمرُ الدنيا لا أتركنَّ أمرَ الآخرة، قال: فاستقبله إبليسُ في صورة شيخ فقال: أين تريد؟ قال: أقطع تلك الشجرة، قال: كذبتَ والله ما أنت بقادرٍ على ذلك، ولا سبيلَ لك إليها، قال: فتناوله العابدُ ليأخذه كما فعل أولَ مرةٍ فقال: هيهات قال: فأخذه إبليسُ فصرعه فإذا هو كالعصفورِ بين يديه، قال: وقعد إبليس على صدره وقال: لتَنتهينَّ عن هذا الأمرِ أو لأذبحنَّك، فنظر العابد فإذا لا طاقةَ له به، قال: يا هذا قد غلبتَني فخِلَّ عني وأخبرني عنك: كيف قد غلبتُك أولَ مرة فصرعتُك والآن غلبتَني فصرعتني؟ فكيف ذلك؟ قال له إبليس: لأنك أول مرةٍ غضبتَ لله تعالى، وكانت نيتُك الآخرة فسخرَّني اللهُ لك فغلبتَني، وهذه المرة جئتَ مغاضباً لنفسِك وكانت نيتُك الدنيا فسلَّطني اللهُ تعالى عليك فصرعتُك.

وهكذا حدثونا في قصة تطُول أنَّ ملكةَ من بني إسرائيل راودت عابدًا عن نفسه فقال: اجعلوا لي ماءً في الخلاء أتنظف، قال، ثم صعد على موضع في القصر فرمى بنفسه فأوحى الله عزّ وجلّ إلى ملك الهواء: اِلزَم عبدي قال: فلزمَه حتى وضعه بالأرض على قدميه رويدًا، فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال: ليس لي سلطان على مَن خالف هواه وبذل نفسَه لله تعالى.

وفي حديث معاذ بن جبل أنَّ العبدَ يوم القيامة ليُسأل عن كلِّ شيء حتى عن كحلِ عينيه وعن فتاتِ الطينةِ بأصبعيه، وعن لمسِه ثوب أخيه، وروينا في خبر مقطوع: من تطّيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحُه أطيبُ مِن المسك، ومَن تطّيبَ لغيرِ الله تعالى جاء يوم القيامة وريحُه أنتنُ من الجيفة، وليس الطِّيب مِن أكبر المأمور به ولا من الإثم المنهيِّ عنه، وإنما لصاحبه منه نيته، فإن كان نيته اتباع سنّةِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإظهارِ النعمةِ لله تعالى، كان بذلك مُطيعًا وكان له ثواب ما نواه، وإن تطيَّب لغير ذلك كان به عاصياً لاتباعه هواه.

وعن بعض السلف الصالح قال: كتبتُ كتابًا وأردتُ أن أتربَه في منزل جاري فتحرَّجتُ من ذلك ثم قلتُ: ترابٌ وما تراب؟ فترَّبتُه فهتف بي هاتفٌ سيعلم مَن استخفَّ بترابٍ ما يلقى غداً مِن سوء الحساب. وقال بعض العلماء: إن لأستحبُّ أن يكونَ لي في كلِّ شيء نيةٌ حتى في أكلي وشربي ونومي. وحُدِّثت أنَّ رجلاً صلّى مع سفيان صلاةَ العيد وكان قد خرج معه بغلَس، فلمّا أصبح نظر وإذا إزارُ سفيان مقلوب فقال له: يا أبا محمد قد لبستَ ثوبك مقلوبًا فأصلِحه قال: فمدَّ سفيانُ يدَه ليسوِّي إزارَه ثم قبضَها فلم يسوِّه فقال له الرجل: ما منعك أن تسوِّيه عليك؟ قال: إني لبستُه لله عزَّ وجلّ فلا أريد أن أسوِّيَه لغيرِ ذلك. ونادى رجلٌ امرأتَه وكان فوقَ سطحٍ يسرِّح شعرَه فقال: هاتي المُدرَى ليفرُق به شعرَه، فقالت امرأته: وأجيء بالمرآة؟ فسكت هنيّة ثم قال: نعم، فقال له من سمعه: لأي شيء سكتَّ وتوقفتَ عن المرآة؟ فقال له: إني قلتُ لها: هاتي المدرى بنية، فلما قالت: والمرآة؟ فلم يكن لي في المرآة نية، فتوقفتُ حتى هيأ اللهُ لي نيةً فقلت: نعم جيئي بها.

وحدثونا عن بعضِ أصحابِ بشر أن فتحًا الموصِلي دخل عليه فقام له بِشر، قال: وما رأيتُه قام لغيره، فقمتُ فأجلسني، فلما انصرف قلتُ له: قمتَ أنتَ إليه فلما قمتُ له

)

أجلستَني، فقال: أنا قمتُ إليه لأجل الله تعالى، وأنت قمتَ لأجلي فأجلستُك. وحدثونا أنَّ بعض الفقراء كان يصحب أبا سعيد الخرَّاز فكان يخفُّ بين يديه في حوائجه، ويخدم الفقراء، ويسارع في قضاء حوائجِ أبي سعيدٍ وأصحابه، قال: فتكلم أبو سعيد يوماً في إخلاصِ الحركة فوقرَ ذلك في قلبِ الشاب فكأنه أخذ الإخلاصَ والتفقَّد لحركتِه وخدمتِه فترك ما كان يعملُه مِن قضاءِ حوائجِ أبي سعيد في الخفَّة بين يدي إخوانِه حتى أضرَّ ذلك بأبي سعيد فقال له: يا بُني قد كنتَ تسعى في حوائجِ إخوانك ثم قطعتَ ذلك فما السبب؟ فقال يا أستاذ إنك تكلمتَ في الإخلاص، وإني خشيتُ أن تكون أفعالي مدخولةً فتركتُها، قال أبو سعيد: لا تغفل، إنَّ الإخلاصَ لا يقطعُ المعاملةَ ولا ينبغي للعاقل أن يتركَ العملَ لأجل الإخلاص فيفوتُه الإخلاص والعمل، ولم أقل لك: اُترك ما أنتَ عليه إنما قلتُ لك: أخلِص فيه، فإن طلبَك للإخلاص قد قطعك عن عملِ البرِّ وقد أضرَّ ذلك بنا فارجِع إلى ما كنتَ فيه وأخلِص فيه لله تعالى.

فينبغي للعبد أن يكون له نيةٌ خالصةٌ في جميعِ تصرُّفِه في حركتِه وسكونِه وسعيِه وتركِه، فإن الحركةَ والسكونَ اللذَين هما أصلا الأعمال مِن أعماله التي يُسألُ عنها، فيحتاج إلى النيةِ والإخلاصِ فيهما، فليجعل جميعَ ذلك لله تعالى وفيه بعقدٍ واحدٍ على مراتبَ من المقامات عنده، إما حبًّا له وإجلالاً له، وإما خوفًا منه أو رجاء له، أو لأجلِ ما أمره به، فينوي أداءَ الفرائض، أو لما ندبه فينوي المسارعةَ إلى الخير، وفيما أُبيحَ له فتكون نيتُه في ذلك صلاحاً لقلبه، وإسكانَ نفسِه، واستقامةَ حالِه، وذلك كلُّه لأجل الدين وعدة الآخرة، وشكرًا لربِّه تعالى، ودخولاً فيما أحلَّ له، واعترافاً بما أنعمَ عليه، واتباعاً لسنّة نبيِّه فيه، ولا يكون واقفًا مع طَبعٍ ولا جاريًا على العادة.وقال أبو عبيدة بن عقبة: مَن سرَّه أن يكملَ عملُه فليُحسن نيَّتَه، فإن الله عزَّ وجلَّ يأجرُ العبدَ إذا حسُنت نيتُه حتى باللُّقمة.

فأحسنُ تفسيرِ النية بما فسَّره رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن الإحسان فقال: أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه. فهذه شهادةُ العارفين ومعرفةُ الموقنين، فهم مخلصُوا المخلصين، وقال ابن المبارك: رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُه النية. وقال بعضهم: القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغُ مِن حركاتِ الأعمال بالصلاةِ والصيامِ ونحوه، وقال الأنطاكي: إذا صارت المعاملةُ إلى القلب استراحَت الجوارح. ورُوي عن عليٍّ عليه السلام: مَن كان ظاهرُه أرجحَ مِن باطنه خفَّ ميزانُه، ومَن كان باطنُه أرجحَ مِن ظاهرِه ثقُل ميزانُه يومَ القيامة، وقال داود الطائي: رأيت الخيرَ كلَّه يجمعه حسنُ النية فكفاكَ به خيرًا، وإن لم ينصب، ورُوِي عن الحسن في تفسير قوله تعالى: M m n o p L **العنكبوت**: 27، قال: نيتُه الصادقة اكتسب بها الأجر في الآخرة.

وروي عن عبد الرحمن بن مريح قال: مَن قام إلى شيءٍ مِن الخير لا يريد به إلا الله عزّ وجل، ثم عرض له مَن يريد أن يرائيه بذلك أعطاه الله عزَّ وجلَّ بالأصل، ووضع عنه الفرع، ومن قام إلى شيءٍ من الخير لا يريدُ إلا المراءاة، ثم فكر وبدا له فجعل آخرَ ذلك لله عزَّ وجلَّ أعطاه الله تعالى بالفرع ووضع عنه الأصل، كأنه حسب ذلك توبة؛ والتوبة مكفِّرة لما سلف والله أعلم، وقد تلتبسُ الفضائلُ بالمناقص لدقَّة معانيها وخفيِّ علومِها كصلاة العبد النفل وهو يحسب أنه الأوجب، مِن ذلك أن رجلاً كان يصلّي فدعاه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يُجبه فظن أنَّ وقوفَه بين يدي الله تعالى بالغيب أفضل له، فلما سلَّم جاءه فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما منعك أن تجيبَني حين دعوتُك؟ فقال: كنتُ أصلّي، فقال: ألم تسمع قولَ الله تعالى: M ¯ ° ± 2 3 ´ µ L الأنفال: 24فكان إجابةُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلَ له، لأن صلاتَه نافلةٌ، وإجابةُ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرضٌ عليه، قال بعضهم: مَن كان طلبُ الفضائلِ أهمَّ إليه مِن أداءِ الفرائض فهو مخدوع، ومَن شُغِل بغيرِه عن

)

نفسِه فقد مُكِر به، وقال سفيان: إنما حُرموا الوصول بتضييعِ الأصول: فأفضلُ شيء للعبدِ معرفتُه بنفسِه، ثم وقوفُه على حدِّه، ثم إحكامُه لحاله التي أقيمَ فيها، ثم قيامُه بعلمِه الذي فُتِح له، فيبتدئ العملَ بما افتُرِضَ عليه بعد اجتنابِه ما نُهي عنه مبلغَ علمِه ووُسعَ وَجدِه، لا يشتغلُ بطلبِ فضلٍ حتى يُحكمَ عملَ فرض، لأن الفضلَ رِبحٌ لا يصحُّ إلا بعد رأس المال، ولكلِّ فضلٍ آفةٌ قاطعة، فمَن سلم منها حاز فضلَه، ولكل أمرٍ نفيسٍ مؤونةٌ ثقيلة، فمَن تحمَّلها أدرك نفيسَها، ومَن تعذَّرت عليه السلامةُ فهيهات أن يصيرَ إلى فضلِ كرامة، ومَن لم يصبر على تحمُّل غرامةٍ لم يُدرك علوَّ مقامِه، وقد يلتبسُ التكلُّفُ بالإخلاصِ وإظهارِ العلمِ بظهورِ التزيُّن به، قال الثوري رحمه الله: زيِّن نفسَك بالعلم ولا تزيَّن به؛ أي أدِّبها لله عزَّ وجلّ فتكون زينًا في أوليائه، ولا تتزين به عند الناس ليمدحوك عليه ويلتبس الاختبار بالاختيار، فالاختبارُ ما كان عن حاجة وتطرَّقت به إلى الله عزّ وجلّ، والاختيار ما زادَ في الشهوة وكان سُلَّماً إلى الخلق كالتباسِ سترِ العورة مِن الثياب بالفاخرِ منها للنعمةِ والتكثُّر من الأسباب، وقد يتطوَّع العبدُ بعملٍ يضيِّع به فرضًا وإحكام الفرض لجوازِ السلامة هو الفضل.

وقد روي: إذا دُعي أحدُكم للطعام فإن كان مفطرًا فليُجب، وإن كن صائمًا فليقُل إني صائم. فأمرَه بإظهار عملِه وهو يعلم أنَّ الإخفاءَ أفضل، ولكن إظهار عملِه من حيث لا يؤثر في قلبِ أخيه وجدًا أفضلَ مِن إخفائه لنفسه مع تأثيرِ ذلك في قلبِ أخيه لتفضيلِ العمالِ على الأعمال، إذ الأعمالُ موقوفةٌ على العامل، فإنما يُعطى الثوابُ على قدرِ العامل لا على قدرِ العمل لتضعيفِ الجزاءِ لمن يشاءُ عزَّ وجلّ على غيرِه في العمل الواحد، فدلَّ ذلك أنَّ المؤمنَ أفضلُ من العمل فقيل له: ارفع التأثيرَ والكراهةَ عن قلبِ أخيك بإظهارِ عملِك؛ فهو خيرٌ من إخفاءِ العمل مع وَجدِ أخيك عليك، لأنَّ أخاك إذا دعاك إلى طعامٍ صنعه لك فلم تُجبه ولم تعتذر إليه عذراً بيِّناً يقبله منك ويعرِفه شقَّ عليه ذلك إن كان صادقًا في دعائك، قال ابن شبرمة: سأل كرز بن وبرة ربَّه عزَّ وجلّ أن

يعطيَه الاسمَ الأعظم على أن لا يسأله شيئاً مِن أمر الدنيا، فأعطاه الله تعالى ذلك فسألَ أن يقوى أن يختمَ القرآنَ في اليوم والليلة ثلاثَ مرات، فقيل لِكرز: أتعبتَ نفسَك في العبادة!؟ فقال: كم مقدارُ الدنيا؟ قيل: سبعة آلاف سنة؟ قال: أما يرضى عبدٌ أن يعمل سبعةَ آلاف سنة وينجو مِن يوم مقدارُه خمسين ألف سنة؟ وقال سري السقطي: ركعتان تُخلِصهما خيرٌ لك مِن أن تكتبَ سبعين حديثاً أو قال: سبعمائة حديث.

**الفهرس**

)